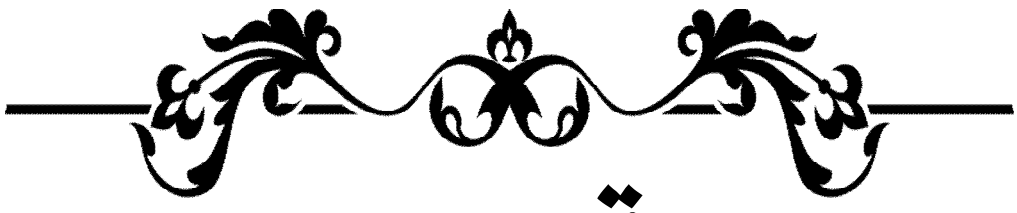

قسم

الأدب والنقد

فلسطين
في شعر نزار قباني

إعداد الدكتور

ياسر عكاشة حامد مصطفى

أستاذ الأدب والنقد المساعد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

بنات الزقازيق

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي علم الإنسان مالم يعلم، وميزه عن كل خلقه بالعلم والعرفان، والصلاة والسلام على صاحب البيان وممدوح الشعراء عبر العصور، والذي جعل من البيان سحرا ومن الشعر حكمة، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد...

يمثل شعر نزار قباني عن فلسطين وثيقة أدبية رفيعة المستوى إذ سجل فيها الصراع الفلسطيني ــ والعربي كذلك ــ الإسرائيلي بكل أبعاده، وحمل شعره عن فلسطين رؤية لاستعادة الأرض المحتلة والتراب المغتصب، وعبَّر في شعره كذلك عن آلام الشعب الفلسطيني وهمومه أمام تقاعس الحكام العرب عن قضيتهم الكبرى ــ فلسطين ــ، كما تحدث عن آماله في الحرية والكرامة، ومن هنا أتت أهمية دراسة " فلسطين في شعر نزار قباني ".

ولقد وجدت الكثير من الدراسات التي تناولت نزار قباني وشعره مثل " مظاهر الحداثة عند نزار قباني " بحث منشور في مجلة جامعة البلمند بلبنان العدد ١٠ سنة ٢٠٠٠ م للباحث محمد توفيق أبو علي، " نزار قباني شاعر لكل الأجيال " لشربل داغر ط دار سعاد الصباح بالكويت سنة

١٩٩٨م، " الشعر السياسي في أدب نزار قباني " مجلة جامعة بلمند لبنان العدد ١٠ سنة ٢٠٠٠م لخريستو نجم، " نزار قباني والقضية الفلسطينية " لميرفت دهان، ولقد قصد الباحثون في هذه البحوث جانبا وقصدت جانبا آخر، حيث أتى الباحثون على جزء من الأعمال السياسية لنزار قباني دون الإحاطة بكل شعره السياسي التي تناول فلسطين موضوعا لتجاربه، إلا كتاب " نزار قباني والقضية الفلسطينية " الرقمي حيث رامت الباحثة ما قصدناه وسعت إلى ما كنا نريده إلا أننا اختلفنا في المنهج والقضايا، إذ ركزت الباحثة اهتمامها على قضية الالتزام في شعر نزار السياسي، وسعت إلى عرض القضية الفلسطينية عرضا تاريخيا وافيا، وجعلت من نكسة ١٩٦٧م محورا لاهتمامها مع تناول بعض القصائد السياسية الأخرى، لكنها لم تحط بدراستها موضوع فلسطين في شعر نزار قباني وهو ما هدفنا إليه في هذه الدراسة.

وعلى الرغم من الصعوبات التي واجهتني أثناء الدراسة من قلة المراجع التي تناولت هذا الجانب في شعر نزار قباني، وكثرة الآراء المتعارضة والمتباينة حول شعره[١]، فإنني قد نالني الكثير من الإعجاب

(١) انظر في تناقض الآراء واختلافها حول شخصية نزار قباني وشاعريته: " نزار قباني شاعرا وإنسانا " – محي الدين صبحي ط دار الآداب – بيروت ط أولى سنة ١٩٥٨م، " النرجسية في أدب نزار قباني " د/ خريستو نجم ط دار الرائد العربي – بيروت ط١ سنة ١٩٨٣م، الضوء واللعبة استكناه نقدي لنزار قباني " د/ شاكر النابلسي ط المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت ط١ ١٩٨٦م.

بشعر نزار قباني في هذا الجانب حين جعلت الشعر هو المعيار والمقياس، فاعتمدت على تحليل شعره عن فلسطين كي أصل إلى رؤيته الإبداعية وأسرار فنه الشعري ولغته بعيدا عن الهوى والميل تجاه رأي دون آخر.

وقد اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى تمهيد وفصلين وخاتمة.

أما التمهيد فكان عن فلسطين في الشعر العربي المعاصر مما يشير إلى أهمية هذا الجانب في الدراسات الأدبية.

والفصل الأول: دار حول " فلسطين في شعر نزار قباني " من الناحية الموضوعية، وجاء تحته ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الدعوة إلى النضال والمقاومة.

المبحث الثاني: صورة المأساة ونقد الواقع العربي.

المبحث الثالث: صورة المقاوم الفلسطيني.

أما الفصل الثاني: فكان " دراسة فنية في شعر نزار قباني عن فلسطين " وتناولت فيه مجموعة من المحاور الفنية في شعره هي:

١ – اللغة. ٢– التكرار. ٣– التشكيل الإيقاعي.

٤– توظيف الرمز التراثي في شعر نزار قباني عن فلسطين.

٥– الصورة الشعرية.

ثم تأتي بعد ذلك الخاتمة التي حاولت فيها رصد بعض النتائج التي توصلت إليها من خلال هذه الدراسة.

وبعد، فإنني لم آل جهدا في هذا البحث، ولم أبخل عليه، وكل ما أرجوه مخلصا أن أكون قد وفيته حقه، وأن ينال القبول لدى المتلقين، وأن أكون قد قمت بشيء من الواجب تجاه الأدب العربي.

والله أسأل التوفيق والسداد إنه نعم المولى ونعم النصير.

الباحث

تمهيد

فلسطين في الشعر العربي المعاصر

لقد شغلت قضية فلسطين الأمم العربية منذ أن وضعت الحرب الأولى أوزارها إلى وقتنا الحاضر، حيث وقع ذلك الجزء العربي المبارك تحت وطأة الاستعمار الانجليزي والأطماع اليهودية في بناء وطن يهودي في فلسطين.

وقد " أخذت القضية شكلا جديدا من يوم أن أصدر اللورد بلفور وزير خارجية بريطانيا تصريحه المشئوم في ٢ فبراير ١٩١٧ الذي يَعِد فيه اليهود بإقامة الوطن القومي لهم في فلسطين، ووُضِعت فلسطين تحت الانتداب البريطاني بمجرد أن انتهت الحرب واعترفت معاهدة سيفر سنة ١٩٢٠ بهذا الانتداب، ثم أقرته عصبة الأمم سنة ١٩٢٢"[١].

ولم يكتف اليهود بذلك بل زادت أطماعهم في بناء امبراطورية كبرى تمتد من النيل للفرات، وتشمل جزءًا من الأراضي الحجازية المقدسة بالمدينة المنورة وما حولها.

ولم تقف فلسطين مكتوفة اليد بل قامت بينها وبين اليهود معارك طويلة المدى حتى يومنا هذا، وقامت الكثير من المؤتمرات لحل هذه القضية إلا

(١) العامل الديني في الشعر المصري الحديث د/ سعد الدين الجيزاوي ص ١٦٨ ط المجلس الأعلى للفنون والآداب.

أنها لم تفلح، ووقعت فلسطين في براثن اليهود وأعوانهم من الانجليز والأمريكان عام ١٩٤٨م.

ولقد كانت لأحداث فلسطين الأليمة أصداء بعيدة المدى في الشعر العربي حين وقف شعراء الأمة العربية وراء الأحداث يحفزون الهمم ويسجلون صور الكفاح، فكانت قصائدهم خير شاهد على الجرائم وخير ناقل وواصف لما يجري، فانطلقت القصائد قوية تصفع الآذان، وتطرق جدار الوجدان الأصم، وتسعى لإيقاظ القلوب الغافلة، فكانت منذرة بالخطر، وملامسة حرارة الفاجعة، ومستخدمة شتى الأساليب التعبيرية مع اختلاف مستوياتها الفنية.

ومن هنا نرى الشعراء العرب ينظرون إلى قضية فلسطين على أنها قضية العرب أجمعين، فنكبتها نكبة للأمة كلها، وتحريرها يعني تحرير الأرض العربية من رقبة الاستعمار الصهيوني الغاشم.

ولهذا نجد أحمد محرم حين تأتي ذكرى وعد بلفور يخاطب فلسطين خطاب المفجوع المحزون مبينا تآمر اليهود لسلب تراث المسلمين فيقول[١]:

إيه فلسطين اصبري أو وكفى بصبرك في الحوادث
ظلم اليهود بنيك حين تحكموا وأرى الألى باعوك كانوا أظلما
يا ويحهم أفما رأو من حولهم شعبا أعز من اليهود وأكرما

(١) ديوان أحمد محرم ٨٤٢/٢ جمعه وحققه وشرحه محمود أحمد محرم ط مكتبة الفلاح الكويت سنة ١٩٨٤م.

عقدوا لنا العهد البغيض وإنهم لأضر من عقد العهود وأضرما

وكذلك نجد الشاعر يوسف العظم في قصيدته " القدس " يرتدي ثوب الحزن حين يكشف عما تعانيه القدس من جور وبطش الصهاينة، ويضيء جوانب مأساة حرق القدس ويكشف أبعادها بمجموعة من النداءات توحي بالأسى والمرارة التي تفتك بصدر الشاعر فيقول(١):

يا قدسُ يا محرابُ يا يا نورُ يا إيمانُ يا عنبرُ
منْ لوث الصخرة تلك كانت بمسرى أحمد تفخر
وأمطر القدس بأحقاده فاحترق اليابس
والبغي مهما طال عدوانُهُ فالله من عدوانه أكبرُ

ونجد الدكتور "محمد رجب البيومي"(٢) قبيل نكبة ١٩٤٨م يأسى لحال فلسطين الباكية، ويمجد بطولتها، ويشاطرها المحنة، فهي والهة ثكلي، ينوح طيرها علي مراتعه السليبة، فيقول:

---

(١) مجلة الحج والعمرة السعودية العدد ٧ عام ١٤٢٨هـ.

(٢) د/ محمد رجب البيومي شاعر مصري معاصر، ولد بالكفر الجديد مركز المنزلة من أعمال محافظة الدقهلية ١٩٢٣ م، حفظ القرآن الكريم، والتحق بالأزهر، وتخرج في كلية اللغة العربية عام ١٩٤٩ م ثم عمل مدرسا بها، وصار يتدرج في المناصب حتي عميدا لها، وقد قدم للمكتبة العربية إنتاجا غزيرا في حقل الدراسات الأدبية والتاريخية، ومن دواوينه " صدي الأيام" الذي حصل عنه بجائزة مجمع اللغة العربية، للمزيد راجع شعراء ودواوين للأستاذ/ أحمد مصطفي حافظ ص ٢٠٧ وما بعدها الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠م.

ما زلــت والهة ثكلي يا جــارة الحي ما يبكيك
علــت نواحيك آهات مثل التي أصبحت تعلو
وناح طيرك مرتاعا فقلت لــقــد تعلمت من أطيار

وفي أعقاب النكبة تستمر توجعات الشعراء وآلامهم، فهذه صرخة عمر أبو ريشة معبرة عن غياب البطل الذي كان ينتظره الشعراء، فتبدو آلامه الدامية وهو يخاطب أمته ويشكو منها إليها ويوازن بين ماضيها وحاضرها فيقول(١):

أمَّتي كم غَصَّة دامية خَنَقتْ نجوى علاك في
أيُّ جُرح في إبائي راعف فَاتَهُ الآسي فلم يلتَئم
ألإسرائيلَ تعلو رايةٌ في حمى المهد وظلِّ الحرم
كيفَ أغْضَيت على الذُّل تَنْفُضي عنك غُبَارَ التُّهَم
رُبَّ "وا معتصماهُ " انطَلَقتْ ملءَ أفواه البنات اليُتَّم
لامَسَتْ أسمَاعَهم لكنَّهَا لم تُلامسْ نَخْوَةَ المعْتَصم

وكلما مرّ وقت على النكبة كان الشاعر ينتظر أن تهب الأمة أو تنهض للثأر، ولكنَّ ذلك لم يحدث فينظم قصيدته "يا عيد"(٢) لتعبر عن عدم الجدوى من صرخاته وصرخات غيره من الشعراء فيقول:

---

(١) ديوان عمر أبو ريشة ص ٨ ط دار العودة بيروت.
(٢) ديوان عمر أبو ريشة ص ٩٣ – ٩٥.

يا عيدُ ما افترَّ ثَغْرُ الجد يا عيدُ فكيف تلقاكَ بالبُشْرَى
طالعْتَنا وجرَاحُ البغي راعفةٌ وما لها من أساة الحَيِّ
فَللْفَجيعةُ في الأفواه غَمْغمةٌ وللرجولة في الأسْماع تَنْديدُ
فَتلكَ راياتُنا خَجْلَى مُنَكَّسَةٌ فأَين من دونها تلك الصنَاديدُ
يا عيدُ كَمْ في روابي القُدس من لها على الرَّفْرَف العُلْويُّ

وحين لم تقتصر محاولات اليهود في الاعتداء على الأرض، بل امتدت إلى المقدسات الإسلامية والمسيحية، ولا سيما المسجد الأقصى، إذ هو المكان الأكثر استهدافا بحجة كاذبة من حجج الصهاينة، وهي بناؤه فوق الهيكل المزعوم، والعرب صامتون لا ينطقون إلا من صرخات من هنا وهناك، ولذلك يتوجه الشاعر هارون هاشم رشيد إلى العرب الغافلين عما يُدَبَّر لهذا الصرح الديني في الخفاء فيقول في قصيدته "صرخة الأقصى"[1]:

المَسْجدُ الأقصى يُبَاحُ ويُهْدَم والعَالَمُ العربَيُّ غاف
المَسْجدُ الأقصى يدُوُر بسَاحه الآثمُونَ الغَادرونَ ويُظْلَمُ
المسجد الأقصى على أفْوَاهنا نَغَمٌ نُرَدِّدُهُ وشعْرٌ يُنْظَمُ
وقَصائدٌ رَنَّانةٌ نَهْذي بها وَتَلَفُّتٌ وتَحَسُّرٌ وتَأَلُمُ

وبناء على هذه الحالة الأليمة التي سيطرت على الشعراء العرب تجاه نكبة فلسطين، والحالة المأساوية التي سيطرت عليها نجد الشاعر "هارون

(١) ديوان " قصائد فلسطينية "، هارون هاشم رشيد ص ١١٦ ط دار مجدلاوي – عمان سنة ٢٠٠٣.

هاشم رشيد" لا يرى أي بارقة أمل من المؤتمرات والاجتماعات التي كانت تعقد لنصرة القدس، إذ يدرك الشاعر أن العرب والمسلمين أصبحوا لا يعرفون تجاه القضية إلا الإدانة والشجب والاستنكار، فيقول:

وقيلَ عامُ القدسِ هذا العامْ

اتَّخَذَ القرار في اجتماعه مؤتمرُ الإسلامْ

وصَفَّقَ الحُجَّابُ والخُدَّامْ

وعَادَ كلٌّ واحدٍ لقصرهِ ونامْ

وتُرِكَتْ مدينة القدس تغوصُ في الظلامْ

تَغْرقُ في القتَامْ

تدُوسُها سنَابِكُ الغُزاةِ بالأقدامْ

وتسْتَبِي تاريخا وتَزْرَعُ الأَلْغامْ

وتنشرُ الدمار في أنحائها والموتَ والحُطامْ

وقيل عام القدسِ هذا العامْ[1]

وفي الوقت الذي نجد فيه طائفة من الشعراء يظهرون مواجيدهم ومواجعهم لحال فلسطين نلمح أن هذا التفجع والبكاء والآهات لم يكن بمعزل عن وقفات التحدي وصرخات المواجهة والدعوة إلى حمل السلاح،

(١) ديوان مفكرة عاشق لهارون هاشم رشيد ص ١٨ – ١٩ ط المطابع الموحدة سنة ١٩٨٠.

وإعادة الكرامة وزرع الثقة، لكي تشبَّ نار الغضب وتثير نوازع النفس وحميتها.

وتبدو هذه الروح في رسالة هارون هاشم رشيد إلى أم الشهيد، يدعوها إلى عدم البكاء والنواح لموت فتاها بل يدعوها إلى الصبر والثبات والثورة ضد المحتلين، ويعدها بالنصر المبين فيقول في قصيدة " رسالة إلى أم كل شهيد "[1]:

أنا لا أريدك في جمو ع الباكيات النادباتْ
أنا لا أريدك لا أريـ ـدك في جموع
إني أريدك للكفا ح وللجهاد وللثباتْ
إني أريدك في جمو ع الصابرات العاملاتْ
أنا لا أريدك تذكريـ ـن فتاك بالدمع الثخين
بالحزن بالأنَّات بالـ أشجان بالصوت الحزين
بتلهف القلب الطعيـ ـن وبالتوجع والأنينْ
إني أريدك تذكريـ ـن فتاك بالثأر الدفينْ
بالوثبة الكبرى غدَا في موكب النصر المبين

ولعلنا نلاحظ في العديد من الأشعار التي تناولت قضية نكبة فلسطين ربط القضية بالبعد الإسلامي، متجاوزا بذلك البعد القومي، ولا شك أن

(١) ديوان " عودة الغرباء "، هارون هاشم رشيد، ص ١٩، ط منشورات المكتب التجاري بيروت سنة ١٩٥٦م.

الشاعر محق في هذا الربط لأن البعد الديني المقدس والأرض المباركة حاضرة في أذهان أبناء الأمة الإسلامية، ونعتقد أن العاطفة الدينية الإسلامية قد لعبت دورا مهما في شحذ الهمم والتحفيز والإثارة والحض على الجهاد، ويؤكد الشاعر أحمد الصديق على هذه العلاقة حين يشير إلى أن ضياع فلسطين كان يوم أن ضيعنا ديننا وفرطنا بعقيدتنا فيقول[1]:

فلسطين ضاعتْ يومَ ضاعت وباتَ فسادُ الحال أقبح مقْتَنى
أيُجحَدُ دين أورثَ العرب سُؤْددا ويُنْقضُ ما شَادَ النبي وما بنى
ليرضى علينا الغربُ حينا ويحْتَفي بنا الشَّرٌ أحيانا ونفقد ذاتنا
وما زادنا هذا التذبذب عزَّةً ولكن حَصَدنا دونه الشوك

ومن ذلك أيضا قول حميد الجامعي[2] :

والمسجد الأقصى ينادي أهله يا مسلمون أيترك المغصوب
قد داس محرابي وداس منصّتي بعد الخليل، المشركُ المغضوب

---

(١) شعراء الدعوة الإسلامية، أحمد الجدع، حسني أدهم جرار، ص ٥٧، ط مؤسسة الرسالة سنة ١٩٧٨م.

(٢) هو الشاعر الفقيه القاضي أبو سرور حميد بن عبدالله الجامعي السمائلي تلقى العلم عن أكابر علماء زمنه ومنهم العلامة الفقيه حمد بن عبيد السليمي والعلامة النحوي الكبير حمدان بن خميس اليوسفي يقول الشيخ عبدالله بن علي الخليلي عنه: فهو رجل سنة وفقيه حديث، وحامل فقه، لأنه علق قراءة كتب الحديث ودأب عليها بكل جد واجتهاد، بدأ عمله في تدريس النحو والفقه والحديث ثم تنقل إلى وظيفة القضاء الشرعي في ولايات مختلفة وله العديد من المؤلفات المطبوعة والتي منها:ديوان أبي سرور (أربعة مجلدات) وكتاب بغية الطلاب وكتاب الفقه في إطار الأدب، طبع في وزارة التراث والثقافة.

صعد الرسولُ إلى السما من أيهودُ تَخلفه هنا وتنوب؟
فمتى أرى أيدي الكماة تقاسمتْ أمعاءه؟ لا سالمتْه خُطوب
أسفي إلامَ الـــمسلمون وعُرْبهم ناموا وعزّي للعدا موهوب؟
تركوا اليهودَ وأشعلوا ما بينهم حربا تُمزِّق شملَهم وتُذيب
قد بات شعبُ الـــمسلمين مفرَّقاً كلٌّ بسيف شقيـــقه مـــضروب
لم نُبق للإسلام إلا قولَنا والفعلُ فـــي عـــصياننا منصوب
يا أمّةَ الإسلام طال خلافكم عودوا إلى الدين الحنيف

ثم نجد الشاعر المغربي حسن الأمرائي يعلن العودة إلى فلسطين عبر الجهاد والكفاح وإسقاط نظام الجور والاستبداد باسم الدين والإسلام فيقول في قصيدة " أوراق مهربة من زمن الحصار":

هبَّت النار على الأحرف

فالأحرف نار

يسقط الآن الحصار

لا تقل: نحن انتهينا

إننا نبتديء الآن

وفوق الجراح نوّار وغار

إننا نفتح بوابة تاريخ فلسطين المجيدة

---

(١) ديوان أبي سرور ٢٨/٣ ط وزارة التراث والثقافة عمان.

إننا نرفع باسم الله فوق السور والصخرة

والقبة والقدس العتيدة

راية التوحيد والعودة

فاقرأ " سورة الفتح " لقد حم القرار[1].

فهذه النماذج تعد غيضا من فيض وقليلا من الشعر الكثير الذي التحم مع القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها الزمنية بما فيها من آلام وآمال مايزال المسلمون يأملون في تحقيقها، ولقد اخترت بعض النماذج المتنوعة لمجموعة من شعراء الأقطار العربية التي جمعها المصاب وهول الفاجعة، ويربطها الإحساس الصادق بعمق معاناة القدس ومكانتها في نفوس العرب والمسلمين.

(١) ديوان الزمان الجديد لحسن الأمرائي ص ١٧١ ط دار الأمان ط ١ ١٩٨٨م.

الفصل الأول

فلسطين في شعر نزار قباني[١]

(١) ولد نزار قباني في الثاني عشر من مارس سنة ١٩٢٣م، في حي دمشقي قديم في مأذنة الشحم لأب وأم دمشقيين، وكان والده من البارزين في دعم الثورة ضد المحتلين، أنجب والده ستة من الأبناء هم: نزار، ورشيد، وهدباء، ومعتز، وصباح ووصال التي ماتت في ريعان الشباب منتحرة، وكان جده أبو خليل القباني الذي كان واحدا من أوائل رواد المسرح العربي، تزوج نزار قباني مرتين الأولى من سورية تدعى " زهرة " وأنجب منها " هدباء " و" توفيق " و" وزهراء "، وقد توفي توفيق بمرض القلب وعمره سبعة عشر عاما، ورثاه نزار بقصيدة شهيرة عنوانها " الأمير الخرافي توفيق قباني " ، وأوصى نزار بأن يدفن بجواره بعد موته، أما الزوجة الثانية فهي " بلقيس الراوي" العراقية التي قتلت في انفجار السفارة العراقية ببيروت عام ١٩٨٢، وترك رحيلها أثرا نفسيا سيئا عند نزار ورثاها بقصيدة شهيرة تحمل اسمها، وقد حمّل الوطن العربي كله مسئولية قتلها، وله منها ولد اسمه عمر، وبنت اسمها زينب، وبعد موتها رفض نزار أن يتزوج مرة أخرى.

التحق نزار بمدرسة " الكلية العلمية الوطنية " بدمشق وهو في السابعة من عمره، وتخرج فيها في الثامنة عشرة، وهو يحمل شهادة البكالوريا الأولى (القسم الأدبي)، ومنها انتقل إلى مدرسة التجهيز حيث حصل على شهادة البكالوريا الثانية قسم الفلسفة عام ١٩٤٠م، وحصل على شهادة الحقوق من جامعة دمشق إلا أنه لم يمارس المحاماة، ثم التحق نزار بعد أن أنهى تعليمه الجامعي بوزارة الخارجية السورية، وشغل عددا من المناصب الدبلوماسية في القاهرة، وأنقرة، ولندن، ومدريد،وبكين، وبيروت،واستقال من العمل الدبلوماسي عام ١٩٦٦م، وظل نزار يتنقل بين باريس وجنيف حتى استقر في لندن، وفي عام ١٩٩٧م عانى من ترد في وضعه الصحي حتى توفي في لندن في ٣٠ أبريل عام ١٩٩٨م عن عمر يناهز ٧٥ عاما،وترك لنا العديد من الأعمال الشعرية والنثرية مثل: ديوان قالت لي السمراء صدر عام ١٩٤٤م، وديوان طفولة نهد عام

مما لا شك فيه أن شعر نزار قباني يشكل معلما هاما من معالم المشهد الشعري المعاصر، إذ اخترق كل البيوت العربية، وانتشر في صالوناتها ومكتباتها، فاهتم به النقاد اهتماما فنيا كبيرا، كما اهتم به العامة اهتماما جماهيريا إذ خاض في العديد من الموضوعات التي تتعلق بالطبيعة الإنسانية والعربية.

ومن الموضوعات التي شكلت محورا مهما وغرضا بارزا في شعره " القضية الفلسطينية " إذ شكلت فلسطين حيزا ليس بالقليل من شعره، كما أنها لم تكن عنده مجرد موضوع يمكن معالجته شعريا باعتبارها غرضا من الأغراض التقليدية، إذ كانت فلسطين في شعره تمثل رؤية وفضاء شعريا يتجاوز التسطح والمباشرة والبكاء على الأطلال، فوجدناه يغوص إلى عمق الرؤية بجوانبها الفكرية والوجدانية والإنسانية والتاريخية.

فالقدس حين ينظر إليها نزار يراها تتجاوز الدور الحضاري والاجتماعي لما عرف عن المدينة، إنها رمز إسلامي بخاصة وديني بعامة، هذا بالإضافة إلى رمزها الإنساني والسياسي، ولذا وجدناه يعالجها

=١٩٤٨م، وديوان سامبا عام ١٩٤٩م، وغيرها من الدواوين المتعددة التي جمعت في الأعمال الكاملة، والتي أصدرتها دار نزار قباني ببيروت عام ١٩٨١م.

راجع ترجمته بالتفصيل في: قصتي مع الشعر لنزار قباني منشورات نزار قباني – بيروت – ط٥ سنة ١٩٧٩م، الشعر العربي المعاصر – نزار قباني شاعر المرأة – إيليا الحاوي ط دار الكتاب اللبناني بيروت سنة ١٩٧٣م، آخر كلمات نزار " ذكريات مع شاعر العصر " عرفان نظام الدين ط دار الساقي ط١ ١٩٩٩م.

من زوايا مختلفة كان المحور الرئيسي لها يجمع ما بين الرمز الديني والوطني، حيث اعتبرها مركزا دينيا ومرتكزا للثوابت.

ولذا وجدنا شعر نزار قباني عن فلسطين يدور في ثلاثة محاور رئيسية على النحو الذي سيتضح.

المبحث الأول

الدعوة إلى النضال والمقاومة

لقد شغلت روح الثورة والمقاومة نزار قباني في شعره عن فلسطين، إذ " يعد نزار من أوائل الشعراء العرب الذين يؤمنون إيمانا مطلقا بضرورة القوة العسكرية المسلحة لاسترداد الحق المسلوب، لأن طلب الحقوق بالمفاوضات السلمية مضيعة للوقت، ولا يؤدي إلى نتيجة فعَّالة لا سيما مع اليهود، لذلك فهو يبارك العمل الفلسطيني المسلح لاسترداد الحق المغتصب"(١).

وأول ما يلفت النظر في شعر نزار قباني هو الرفض التام لهذا المصير الذي آلت إليه فلسطين على أيدي المحتل الصهيوني، فيبين أن هذه الأرض وتلك الديار لم ولن تنسى أصحابها الذين ملكوها على مر الأيام والعصور، فيقول:

لَنْ تَجْعلُوا من شَعْبِنا

شَعْبَ هُنُودٍ حُمر

فنَحْنُ بَاقُونَ هُنَا

فَهَذِهِ بِلادُنَا

---

(١) نزار قباني شاعرا سياسيا د/ عبد الرحمن محمد الوصيفي – ص ٧٦ – ط مكتبة الآداب ط١ سنة ١٩٩٥م.

فِيهَا وُجِدْنا منْذُ فَجْرِ العُمْر

فِيهَا لَعِبْنَا.. وَعَشِقْنا

وَكَتَبْنَا الشِّعرْ (١)

ويؤكد أن فلسطين أرض الكنعانيين منذ ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد(٢)، فكيف لهذه الحفنة من الصهاينة الادعاء بأنها وطنهم ؟!، ثم يظهر الحزن العام الذي يسيطر على المشاعر الفلسطينية ويجتاح النفوس ويسيطر عليها مما يراه بداية الثورة على المحتل الصهيوني، فيقول:

للحُزْنِ أوْلادٌ سَيَكْبَرونْ..

للْوَجَعِ الطَوِيلِ، أولادٌ سيكْبَرون..

لِمَنْ قتلْتُم في فلسطِينَ صِغَارٌ سوف يكبرون..

للأرضِ للحَارَاتِ.. للأبوابِ.. أولادٌ سيكبَرون(٣)

وتظهر دعوته إلى الثورة والمقاومة لاسترداد الحقوق المغتصبة التي لا يمكن أن ينالها الشعب الفلسطيني بالمفاوضات المزعومة حين يبين

---

(١) الأعمال السياسية الكاملة – نزار قباني ١٦٧/٣ – ط منشورات نزار قباني بيروت – لبنان ط١ ١٩٨١م.

(٢) فلسطين أرض الرسالات الإلهية– رجاء جارودي – ص ٩٣ ترجمة د/ عبد الصبور شاهين ط مكتبة دار التراث – القاهرة سنة ١٩٨٦م.

(٣) الأعمال السياسية الكاملة ١٨٣/٣.

الفشل في الحصول على مطالب الفلسطينيين على الرغم من وقوفهم سنوات طويلة أمام أبواب المفاوضات دون طائل فيقول:

ظَلَّ الفلسطِينيُّ أعواما على الأَبْوَاب

يشحَذُ خُبْزَ العدلِ من موائِدِ الذئاب

ويَشْتَكِي عذَابَه للخالقِ التوَّاب(١)

ولذلك تظهر رؤيته في الدعوة إلى النضال واضحة حين يشير إلى أن الضعف لا يمكن أن يعيد حقا ضائعا، والقوة وحدها هي التي تجيد الكلام فيقول:

وعنْدَمَا

أَخْرَجَ من اسْطَبلِه حصانه

وزيَّتَ البارُودةَ الملقاةَ في السِّرْدَاب

أصبحَ في مَقْدُورِه

أن يبدأ الحِسَاب

نحن الذين نَرْسم الخريطة

ونرسم السفوحَ والهِضَاب

نحن الذين نبدأ المحاكمة

---

(١) الأعمال السياسية الكاملة ١٩١/٣.

ونفرضُ الثَّوَابَ والعِقاب[١]

ثم تتجلى الروح الثورية والدعوة إلى المقاومة عند نزار في قصيدة " طريق واحد " حين يطلب من الثوار الصبر والتقدم من أجل تحقيق النصر، فيقول:

يَا أَيُّهَا الثُّوَّارْ..

في القُدْسِ، في الخَليل، في بيسانَ، في الأغوار

في بيت لحمٍ..

حيث كُنْتُم أيُّها الأحرارْ..

تقَدَّمُوا..

تقَدَّمُوا..

فقصةُ السَّلامِ مسرحيَّهْ

والعدْلُ مسْرحيَّهْ..

إلى فلسطين طريقٌ واحدٌ

يمُرُّ من فوَّهَةِ بُندُقيَّهْ [٢]

(١) الأعمال السياسية الكاملة ١٩٢/٣.

(٢) المرجع السابق ٣٣٠/٣.

ففي هذه الأسطر الشعرية يوجه نزار خطابه للثوار في مواقعهم المجهولة، وابتدأ ذكر أماكن الثوار بالقدس ليشير إلى أن تعاليم الأنبياء هي تعاليم الثوار التي ترسي حرية الإنسان وكرامته، ويخاطبهم داعيا إياهم إلى التقدم في جبهات النضال من غير أن ينصتوا أو ينتبهوا إلى المسرحية الهزلية المسماة بالسلام، ويشير إلى أن طريق الخلاص عنده طريق واحد هو فوهة البندقية.

ويظهر الشاعر من خلال هذه الروح الثورية في الذهاب إلى فلسطين للدفاع عنها، والمشاركة في التخفيف عنها في ظل هذه النكبة، إذ يرى في فلسطين وطنه وبيته وأهله الذي يتمنى أن يعود إليهم، فيقول في قصيدة " أصبح عندي بندقية ":

أصبح عندي الآن بندقيَّهْ

إلى فلسطين خُذُوني معكم

إلى ربى حزينة كوجه مجدَلِيَّه

إلى القباب الخضر والحجارة النبيه

عشرون عاما.. وأنا..

أبحث عن أرض وعن هويه

أبحث عن بيتي الذي هناك

عن وطني المحاط بالأسلاك

أبحثُ عن طُفولتي.. وعن رفاق حارتي

عن كتبي وعن صوري

عن كل ركن دافيء.. وكل مزْهَريَّه[١]

وهذه الرؤية الثورية التي تتجلى في شعر نزار قباني عن فلسطين والدعوة إلى المقاومة والنضال تبرز بوضوح في رؤيته للفدائي حيث يرى " أن الفدائي هو الشاعر الحقيقي والذي ينبغي احترامه وتقديسه، فهو وحده الذي يسطر التاريخ الحقيقي للأمة، فما يسجله من بطولات وأعمال جديرة بالاحترام، فهو عندما يجعل بندقيته تعزف لحن التحرير تموت جميع القصائد أمام هذا العزف المنفرد " [٢].

فنجده يقول:

الفدَائيُّ وحده يكتب الشعرَ وكل الذي كَتَبْنَاهُ هراء

إنَّهُ الكَاتبُ الحقيقي للعَصر ونحنُ الحُجَّابُ والأُجَرَاء

عندما تبدأ البنادق بالعزف تموت القصائدُ العَصْمَاء[٣]

فهو هنا يقدس هؤلاء الأبطال وسط ممالك الضلال العربية المتقاعسة عن نصرة فلسطين، وهذا العمل الفدائي ما هو إلا رد فعل بسيط عن

(١) الأعمال السياسية الكاملة ٣/٣٢٨.

(٢) نزار قباني شاعرا سياسيا د/ عبد الرحمن محمد الوصيفي ص ٧٧.

(٣) الأعمال السياسية الكاملة ٣/٤٠٢.

الإرهاب الذي تمارسه القوى الصهيونية ضد الأطفال والنساء والشيوخ في فلسطين.

وكانت دعوة نزار للمقاومة تشمل كل أبناء فلسطين حتى الأطفال، إذ علق عليهم الامال في استعادة الأرض والكرامة العربية، ففي قصيدة " راشيل شوارزنبرغ " التي كتب فيها قصة مجندة يهودية كانت سجينة الألمان وعندما أعلن عن قيام الدولة الإسرائيلية على أرض فلسطين أبحرت مع مجموعة من اليهود إلى أرض فلسطين فلطخوا التراب وأعدموا النساء ويتموا الأطفال، فيقول:

أكتب للصغار

للعرب الصغار حيث يوجدون

فَلْيَذْكر الصغار

العرب الصغار خيث يوجدون

من ولدوا منهم ومن سيولدون

قصة إرهابية مجندة

يدعونها راشيل

حلت محل أمي الممددة

في أرض بيارتنا الخضراء في الجليل

أمي أنا الذبيحة المستشهدة [١]

ويطلب نزار من هؤلاء الصغار أن يثأروا من اليهود الذين ارتكبوا أبشع المذابح والانتهاكات في حق الشعب الفلسطيني، فيقول:

أختي ما زال جرحها الطليل

ما زال بانتظار

نهار ثأر واحد

على يد الصغار

جيل فدائي من الصغار[٢]

ويشيد نزار بهؤلاء المقاومين الصغار الذين اخترعوا نوعا جديدا من الكتابة بأحجارهم الصغيرة، وحبرهم كان دماؤهم التي تروي الأرض، فهم من قرروا أن يتولوا حل مشاكلهم بطريقتهم دون الاعتماد على سادة الخطابة فيقول معبرا عنهم ومصورا إياهم:

بهروا الدنيا

وما في يدهم إلا الحجارة

وأضاءوا كالقناديل

---

(١) الأعمال السياسية الكاملة ٣/٢٧، ٢٨، ٣٢.

(٢) السابق ٣/ ٣٤.

وجاءوا بالبشارة

قومُوا

وانفجروا

واستُشهدوا

وبقينا دببا قطبية

صفحت أجسادهم ضد الحرارة

آهٍ.. يا جيل الخيانات

ويا جيل العمولات

ويا جيل النفايات

ويا جيل الدعارة

سوف يجتاحك ــ مهما أبطأ التاريخ ــ

أطفال الحجارة (١)

وكذلك يشيد نزار قباني بالانتصارات التي يحققها أطفال الحجارة في قصيدة "دكتوراه شرف في كيمياء الحجر" والتي عرض فيها لانتصاراتهم، فهم صنعوا وطنا جديدا وقلبوا أوراق التاريخ وأنهوا عصر الخوف

(١) ثلاثية أطفال الحجارة لنزار قباني ص ١١ منشورات نزار قباني – بيروت – ط١ سنة ١٩٨٨م.

والذعر" فالزيتون أثمر ونبتت في أرض طبرية السنابل، وأطفال الحجارة المساكين يسقطون جرحى يسقون الأرض بدمائهم، ويحملون نور الفجر في عيونهم، هؤلاء الأطفال الشياطين بأفعالهم، الملائكة بطهرهم وعزيمتهم، هم أنبياء الفرح سيخرجون فلسطين من رحم الأحزان"[١]، فيقول مصورا ذلك:

يرمي حجرا

أو حجرين

يقطع أفعى إسرائيل إلى نصفين

يرمي الحجر الثالث

تطلع رام الله بنفسجة من ليل القهر

يرمي الحجر العاشر

حتى يظهر وجه الله

ويظهر نور الفجر

من هو ؟

هذا الولد الزارع

قمح الثورة

---

(١) نزار قباني والقضية الفلسطينية ص ٢٠٥.

في كل مكان ؟

من هو ؟

هذا الطافش من مزبلة الصبر

ومكن لغة الأموات؟

تسأل صحف العالم

كيف صبي مثل الوردة

يمحو العالم بالممحاة ؟ (١).

وعلى الرغم من تصوير نزار قباني لطوائف الشعب الفلسطيني المقاوم ودعوته للثورة والنضال والمقاومة إلا أنه لم يتناول في شعره عن فلسطين المرأة الفلسطينية المناضلة على الرغم من بروز أسماء كثيرة للنساء الفلسطينيات المناضلات من أمثال " حياة البلبيسي، وشادية أبو غزالة، وسهيلة الكعبي، وسحر الجرمي " وغيرهن من المناضلات الفلسطينيات، على الرغم من ارتباط تاريخه بشكل أساسي بالمرأة.

(١) ثلاثية أطفال الحجارة ص ٤٣، ٥٢، ٦١، ٨٢.

المبحث الثاني

صورة المأساة ونقد الواقع العربي

لقد كانت القضية الفلسطينية ماثلة في ذهن ووجدان نزار قباني فعبر عنها في كتاباته وفي قصائده الشعرية، فعلى الرغم من أنه كان شاعر المرأة حيث تغنى بجمالها ومفاتنها، إلا أنه لم ينس مأساة فلسطين بل اعتبرها قضية العرب الكبرى، وقضيته على وجه الخصوص إذ لم يتهاون أو يستهن بهذه القضية.

فمن يتابع ما كتبه يرى أنه تغنى بانتفاضة الشعب الفلسطيني وبصمود أطفال الحجارة، وتغنى ببطولات أهل غزة وبسالتهم، كما كان على يقين تام بأن الفجر قادم وتحقيق النصر آتٍ لا محالة.

ولذا وجدنا صورة مأساة فلسطين لها حضور بارز في شعر نزار قباني وشغلت حيزا كبيرا من شعره، فعبر عن حزنه وألمه لهذه المأساة التي ما تزال جاثمة على صدورنا إلى اليوم.

فحين احتل الصهاينة فلسطين مهبط الديانات السماوية ومصدر الوحي والإلهام يقف نزار قباني أمام القدس وكأنه الشاعر الجاهلي يقف أمام أطلال الحبيبة، وقف ليبكي على ماضي هذه المدينة المقدسة، فيقول:

يا قدس يا مدينة الأحزان

يا دمعة كبيرة تجول في الأجفان

من يوقف العدوان ؟

عليك يا لؤلؤة الأديان

من يغسل الدماء عن حجارة الجدران ؟

من ينقذ الإنجيل ؟

من ينقذ القرآن ؟

من ينقذ المسيح ممن قتلوا المسيح ؟

من ينقذ الإنسان؟[1]

وتستمر هذه المشاعر الحزينة في نفس نزار في بكائه على فلسطين الذي يشبه البكائيات على أمجاد العرب، وهذا الملمح الحزين في شعره يأتي مصحوبا تارة بالأنين الخافت والألم المرِّ تارات أخرى، ويتجلى ذلك في قصيدة " القدس " حيث يظل الشاعر باكيا من فرط حزنه وألمه حتى انتهت دموعه فيقول:

بكيت حتى انتهت الدموع

صليت حتى ذابت الشموع

ركعت حتى ملني الركوع

سألت عن محمد فيك وعن يسوع

---

(١) الأعمال السياسية الكاملة ١٦٣/٣.

يا قدس يا مدينة تفوح أنبياء

يا أقصر الدروب بين الأرض والسماء[1]

ونزار هنا يستعين بالرموز الدينية ــ الإسلامية وغير الإسلامية ــ لعله يجد فيها مخلِّصا لفلسطين من أهوالها ومأساتها ولنفسه مما يعانيه من حزن وألم.

ثم يبدأ الحزن يخيم على أرجاء القصيدة إذ تحولت القدس إلى طفلة محروقة الأصابع حتى أن الشوارع والحجارة والمآذن تحزن هي الأخرى فيقول في القصيدة نفسها:

يا قدس يا منارة الشرائع

يا طفلة جميلة محروقة الأصابع

حزينة عيناك يا مدينة البتول

حزينة حجارة الشوارع

حزينة مآذن الجوامع

يا قدس يا مدينة الأحزان

يا دمعة كبيرة تجول في الأجفان

يا واحة ظليلة مرَّ بها الرسول

---

(١) المرجع السابق ١٥٩/٣.

يا قدس يا جميلة تلتف بالسواد

من يقرع الأجراس في كنيسة القيامة

صبيحة الآحاد

من يحمل الألعاب للأولاد

في ليلة الميلاد[1]

ونزار في شعره عن فلسطين وتصوير مأساتها لم يستطع أن يخفي حزنه وقلقه وثورته في قصيدة " حوار مع أعرابي أضاع فرسه " حيث يقول:

لو أن بحيرة طبريَّا

تعطينا بعض رسائلها

لاحترق القاريء والصفحات

لو أن القدس لها شفة

لاختنقت في فمها الصلوات

لو أن وما يجدي (لو أن) ونحن

نسافر في المأساة

ونمدُّ إلى الأرض المحتلة

---

(١) الأعمال السياسية الكاملة ٣/ ١٦٢.

حبلا شعري الكلمات

ونمدُّ ليَافَا مِنْدِيلا

طُرِّز بالدمع والدعوات(١)

ولم يتوان الشاعر عن التعبير وبأشكال مختلفة عن عمق مأساة فلسطين، وعن حزنه وألمه وحسرته لضياعها، فنراه يدور في فلك المأساة وجوهر القضية التي يعتبرها قضية قومية مصيرية تخص كل عربي ومسلم، فنراه في قصيدة " منشورات فدائية على جدران إسرائيل " يقرع ويشير إلى جريمة حرق المسجد الأقصى فيقول:

المسجد الأقصى شهيد جديد

نضيفه إلى الحساب العتيق

وليست النار وليس الحريق

سوى قناديل تضيء الطريق(٢)

ويستمر نزار قباني في تصوير تلك المأساة في شعره عن فلسطين حين ينظر إلى الواقع في الأرض المحتلة، وما يعانيه شعبنا العربي الفلسطيني تحت نير الاحتلال الصهيوني فتبدو الصورة مخيفة حيث يقول:

---

(١) الأعمال السياسية الكاملة ٢٢٦/٣.

(٢) السابق ١٧١/٣.

نساء فلسطين تكحلن وفي بيت لحم قاصراتٌ وقُصَّر
وليمون يافا يابس في وهل شجر في قبضة الظلم

وتزداد الصورة قسوة حين يرى الشاعر التبلد العربي تجاه فلسطين، ومعاناة الشعب الفلسطيني، فتتجسد المأساة في نفس الشاعر ويدخل في حوار مع الأمل المفقود والحلم الضائع الذي أصبح مستحيلا في زمن الصمت العربي، فيقول:

سقوا فلسطين أحلاما ملونة وأطْعَمُوها سَخيف القول
عاشُوا على هَامش الأحداث ما للأرض منهوبةً والعرضُ
وخلَّفُوا القُدْسَ فوق الوحْل عاريةً تبيح عزّة نهْدَيْها لمن رغبا[٢]

فهنا يتجسد حزن الشاعر في تشخيصه للقدس التي جعلها الحكام العرب تكشف نهديها للغادي والرائح دون أن تهتز نخوة عربية فيهم.

فهذه المشاعر الحزينة على فلسطين والتي أتت على شكل شحنات متقطعة من الغضب والرفض لاحتلال الصهاينة لأرض فلسطين واستعباد شعبها، دفعته إلى حالة من الغضب والرفض لكل ما هو سائد في المجتمع العربي حين رأى التخاذل العربي أمام القضية الفلسطينية بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧م، فيكتب نزار العديد من القصائد التي تمس القضية

(١) الأعمال السياسية الكاملة ٣/٣٨٧.
(٢) السابق ٣/٤٣٢.

الفلسطينية، والتي يصب بها جام غضبه على حكام العرب الذين خيَّبُوا أمل الفلسطينيين، ويحملهم مسئولية ضياع فلسطين، فيقول في قصيدة " الممثلون " التي كتبها عام ١٩٦٨م:

متى سترحلون

المسرح انهار على رؤسكم

متى سترحلون

والناس في القاعة يشتمون.. يبصقون..

كانت فلسطين لكم

دجاجة من بيضها الثمين تأكلون

كانت فلسطين لكم

قميص عثمان الذي به تتاجرون

طوبى لكم

على يديكم أصبحت حدودنا

من ورق..

فألف تشكرون[١]

(١) الأعمال السياسية الكاملة ٣/١١٠.

ثم نجده يصور القمع الذي يمارسه بعض الحكام العرب على أفراد الشعب، مشيرا إلى تعامل العرب مع القضية بخطب جوفاء عن فلسطين يحسبها المرء ذكرى لا يؤتى على ذكرها إلا كل عام حين تحل الذكرى فيقول:

كنتُ أصغي كألوف البسطاء الطيبين

لكلام البهلوان

وهو يحكي.. ثم يحكي.. ثم يحكي..مثل صندوق العجائب

وتذكرت فلسطين التي صارت حقيبة

ما لها في الأرض صاحب

كان في حنجرتي ملح..

وحزني كان في حجم الكواكب

فاعذروني أيها السادة

إذا حطمت صندوق العجائب[1]

ثم يلقي نزار اللوم على حكام العرب الذين يلقون بالشعارات التي تخدر شعوب العرب بدل أن تحثهم على الجهاد في سبيل تحرير الأرض فيقول:

---

(١) الأعمال السياسية الكاملة ٣/٢٦٦.

خدروني..

بملايين الشعارات.. فنمت

وأروني القدسَ في الحلم.. ولم

أجد القدس ولا أحجارها حين استفقت

أيها السادة:

إني وارث الأرضَ الخراب

كلما جئت إلى باب الخليفة

سائلا عن " شرم الشيخ "

وعن حيفا..

ورام الله

والجولان..

أهداني خطاب[1]

ثم يعدد نزار صور الانحلال الذي يمارسه العرب وفلسطين مشردة بينهم تعيش مأساتها دون أن تجد من يدافع عنها فيقول:

شردت فوق رصيف الدَّمع عن الحَنان ولكن ما وجدت أبَا
تَلفَّتي تَجدينا في مَبَاذلنَا مَنْ يعْبُدُ الجنسَ أو مَنْ يعبُدُ الذَّهَبَا

(١) المصدر السابق ٣/ ٢٧١ – ٢٧٥.

فواحدٌ أعْمَت النُّعْمَى بصيرتَهُ فَللخَنَى والغَوَاني كُلُّ ما وَهَبَا
وواحدٌ ببحَار النَّفْط مُغْتَسلٌ قد ضاقَ بالخَيْش ثَوْبًا فارتَدَى
وواحدٌ نَرجسيٌّ في سريرته وواحدٌ من دم الأحرار قد شربَا[1]

ففي هذه الأبيات نجد نزار يرصد رصدا أمينا حالة العرب، فمنهم من يغتسل بالنفط، ومنهم من يرتدي الحرير، ومنهم من يشرب من دم الأحرار، وهذا كله يحدث بالفعل إلا أن نزار لم يتغلغل في المأساة نفسها، ولم يظهر الأثر النفسي لهذه الأبيات.

وفي قصيدته " إفادة في محكمة الشعر " التي ألقاها في مهرجان الشعر ببغداد عام ١٩٦٩م " تظهر فلسطين مخضبة بدمائها والعرب يتباحثون في القشور، ويأتون كل عام ليلقوا الشعر الذي أصبح فأر كسرة خبز، وقد استوت مكانة ذلك الشعر بمكانة الحذاء عند نزار، وقد يزايد الشعراء في الكتابة عن فلسطين وإلقاء اللوم على حزيران وكل من يكتب من ذلك شريك في الهزيمة، كل ذلك وفلسطين تنتظر الفرسان العرب ليعيدوها إلى أحضان الوطن العربي " [2]

ونزار " عندما يصل إلى هذا الحد من إدانة العرب يعالج القضية بطريقته الخاصة، وهو طلبه من فلسطين أن تكف عن الاستغاثة بالأموات

---

(١) المرجع السابق ٤٢٣/٣.

(٢) نزار قباني والقضية الفلسطينية ص ١١٠ – ميرفت دهان – ط دار بيسان – بيروت – ط١ سنة ٢٠٠٦م.

الذين لا يملكون الرد الفعلي على الأعداء، ولا يستخدمون ثراءهم في تحرير فلسطين بل يستخدمونه في نزواتهم ولياليهم الحمراء حتى قُتِلَت المروءات فيهم وطُمِس الشرف العربي "[1]، فيقول مصورا مأساة فلسطين ومعاناته بسبب التزامه بالوطن وحبه وإخلاصه:

يا فلسطين.. لا تزالين عطشى

وعلى النفط نامت الصحراء

يا فلسطين لا تنادي عليهم

قد تساوى الأموات والأحياء

قتل النفط ما بهم من سجايا

ولقد يقتل الثريَّ الثراء

يا فلسطين.. لا تنادي قريشا

فقريش ماتت بها الخيلاء

لا تنادي الرجال من عبد شمس

لا تنادي لم يبق إلا النساء..

كم أعاني مما كتبت عذابًا

(١) نزار قباني شاعرا سياسيا – د/ عبد الرحمن محمد الوصيفي ص ٧٥.

ويعاني في شرقنا الشرفاء[1]

وتبدو في هذه الأبيات الروح السلبية التي سيطرت على الشاعر " وهذه السلبية من الشاعر ذات ملمحين الأول منها أن تنسى فلسطين العرب لأنهم خذلوها وهذا مكمن الخطورة وهو أساس للملمح الثاني الذي يخرج من هذه السلبية وهو الكفر بكل الحكام العرب، ونقول إن هذا الأداء بملمحيه يعتبر أداء سلبيا لأنه لم يحوِ الثورة ضد المتخاذلين"[2].

ولعل هذه الروح السلبية التي برزت في هذه القصيدة لم تكن إلا نوعا من فقدان الأمل نظرا لما يراه من التبلد العربي وخذلان الحكام العرب وتخاذلهم عن نصرة فلسطين مما دفع الشاعر إلى الدعوة إلى الثورة والمقاومة والنضال على نحو ما سيتضح.

(١) الأعمال السياسية الكاملة ٣/٤٠٥ – ٤٠٩.

(٢) نزار قباني شاعرا سياسيا ص ٧٥.

المبحث الثالث

صورة المقاوم الفلسطيني

لقد كان نزار قباني مرتبطا بفلسطين ارتباطا كبيرا دفعه إلى الإكثار من الحديث عنها وعن أبنائها، ودورهم في المقاومة والنضال ضد المحتل الصهيوني، ولذا نراه منفعلا بمحنة هذا المقاوم الذي يستشعر في ذاته أن السبيل الوحيد أمام استرجاع أرضه وحقوقه المسلوبة هو سبيل الاستشهاد.

ومن هنا نجد نزار في هذا الصدد يترك لنا العديد من القصائد التي تمس هذه النقطة مثل قصائده " فتح – عرس الخيول العربية – منشورات فدائية على جدران إسرائيل ".

ونزار في شعره عن المقاوم الفلسطيني يصدر عن رغبة واضحة تشكل مرتكزا مهما لفكرة النضال والمقاومة، وتقوم هذه الرغبة على تأصيل الاتجاه المقاوم في الوجدان العربي، وصقله بالشخصية الفلسطينية التي تنبعث في العديد من القصائد التي تبرز روح المقاومة.

وتبدو مهمة نزار في شعره عن فلسطين واضحة في بعث روح المقاومة وتأصيل أركانها، إذ يرسم صورة واضحة المعالم لشخصية المقاوم الفلسطيني المحافظ على ترسيخ هويته الفلسطينية في النفوس متجاوزا البكاء إلى النضال مما جعل من شعره نبضا لوجد الفلسطيني المسكون بالتحرر والمتمسك بهويته، فيقول:

أنا الفلسطيني

بعد رحلة الضياع والسراب

أطلع كالعشب من الخراب

أضيئي كالبرق على وجوهكم

أهطل كالسحاب

أطلع كل ليلة

من فسحة الدار

ومن مقابض الأبواب

من ورق التوت

ومن شجرة اللبلاب

من بركة الماء

ومن ثرثرة المزراب

أطلع من صوت أبي

ومن وجه أمي الطيب الجذاب

أطلع من كل العيون السود والأهداب

ومن شبابيك الحبيبات

ومن رسائل الأحباب

أطلع من رائحة التراب

أفتح باب منزلي

أدخله من غير أن أنتظر الجواب

لأنني أنا السؤال والجواب [١]

وفي إطار روح التلاحم والنضال الذي ينشده نزار قباني، والتصميم الإرادي والصلابة والوعي والتضحية يرسم لنا صورة للمقاوم الفلسطيني ليضعها نموذجا ومثالا للمناضلين يحبونه ويقتدون به، وهذا كثير في شعره عموما، وفي شعره عن فلسطين على وجه الخصوص.

وهذا ما جعل نزار يتغنى بالمقاومة الفلسطينية مستحضرا تجربتها النضالية ممثلة في إحدى فصائلها المقاوِمة، " تلك المقاومة التي ينبغي أن تنبعث من ثنايا الأرض المحتلة، ومن صميم أبناء الشعب الذي نكلت به الصهيونية والهزائم العربية المتتالية، وفي ظل تلك الملابسات تأتي قصيدة " فتح " لتجسد صورة المنقذ والأب الحاني، فإذا به يتماهى بالمقاومة الفلسطينية، وبالفدائيين العرب، وبشعراء الأرض المحتلة، لأنهم بنظره يحققون له مثال الأنا في مواجهة الأعداء "[٢].

---

(١) الأعمال السياسية الكاملة ١٩٤/٣، ١٩٥.

(٢) نزار قباني والقضية الفلسطينية ص ١١٦ د / ميرفت دهان ط دار بيسان – بيروت سنة ٢٠٠١م.

ولذلك نجد نزار ينظر إلى فتح نظرة مليئة بالتفاؤل والأمل والقوة والصمود حين يتلمس خطاها، ويرسم لها صورة بطولية إذ إنها تمثل صورة المقاوم في وجه المحتل الغاشم، ويراها وردة تنبثق من الأشواك الإسرائيلية لتعيد ماء وجه العرب، فيقول:

جاءت إلينا فتح

كوردةٍ جميلةٍ طالعةٍ من جُرْحْ

كنبع ماءٍ باردٍ يروي صحارى ملحْ

وفجأةً.. ثرنا على أكفاننا وقُمْنَا..

وفجأةً

كالسَيِّدِ المَسيحِ.. بعد موتِنَا نَهَضْنَا

مهما هُمُ تأخَّرُوا فإنَّهُم يأتونْ

في حبَّةِ الحِنْطةِ..

أو في حبَّةِ الزَّيْتُونْ

يأتونَ في الأشجارِ والرياحِ والغُصُونْ

يأتونَ في كلامِنا

يأتونَ في أصواتِنَا

يأتونَ في دُمُوعِ أُمَّهاتنا

يأتون في الغالين من أمواتنا..

مهما هم تأخروا.. فإنهم يأتون.[١]

وتتحول فتح عند نزار قباني إلى أمل أسطوري ينتظره الشاعر، هذا الأمل يحمل في جبهته إنقاذ غزة وبيسان والجليل، ويحرر كل الأرض المغتصبة عنوة، فيقول:

يا فتح يا حصانَنَا الجَميلا

يحمل في غُرَّتِهِ بيسَان والجليلا

وغَزَّةَ والقدسَ والطُيورَ والحُقُولا

ويحمل البحارَ في نظْرَتِهِ

ويحْمِلُ السُّهُولا

يا ماءَنا.. يا ثلْجَنا.. يا ظِلَّنا الظَّليلا

يا طِفلَنا الذي انتظرنا وجهه طويلا

يا فتح نحن مكةٌ

تنتظر الرسولا [٢].

(١) الأعمال السياسية الكاملة ٣/١٤٠: ١٤٢.

(٢) السابق ص ١٤٤.

فهنا نراه يعتز بفتح اعتزازا كبيرا إمانا منه بأن ما أخذ بالرصاص لا يسترد إلا بالمدافع أما الخطب والأقوال فلا تفيد إلا في استمرار الضياع.

وفي قصيدته " منشورات فدائية على جدران إسرائيل "[1] يقف نزار قباني مع المناضلين الفلسطينيين حين يصور رفضهم وتحديهم وصمودهم في وجه الاحتلال الإسرائيلي، فيبرز إصرار الشعب الفلسطيني على البقاء في أرضه، والتشبث بجذوره حتى لو كان ثمن ذلك الدم، فيقول على لسان أفراد الشعب الفلسطيني:

لن تجعلُوا من شعْبِنا

شعْبَ هنُودٍ حُمْرْ

فنحن باقون هنا..

في هذه الأرض التي تلبِسُ في مِعصَمِها

إسوارةً من زهرْ..

فهذه بلادُنا

فيها وُجِدنا منذ فجر العُمرْ

فيها لَعِبْنا.. وعشِقْنا..

وكتبنا الشِّعرْ

(١) الأعمال السياسية الكاملة ١٦٧/٣.

ثم يؤكد الشاعر على بقاء هذا الشعب على تمسكه بأرضه فيقول:

باقون في آذارِها..

باقون في نيسانِها..

باقون كالحَفْرِ في صُلبانِها

باقون في نبيِّها الكريمِ في قرآنها

وفي الوصايا العشر..

لا تسكَروا بالنصرْ

إذا قتلتُم خالدًا

فسوف يأتي عمرو

وإن سحقْتم وردة

فسوف يبقى العِطرْ

ثم يتابع نزار إبراز صورة المناضلين الفلسطينيين الذين يتحدون إسرائيل ويتمسكون بجذورهم مع إيمانهم بأن الحق يعود لأصحابه " فالمناضلون سيظهرون لإسرائيل في كل شيء في المطارات ومن خلف التماثيل وفي غضب الرعد ليقضوا مضجعهم، ويقضوا على آخر فرد منهم، ونساء فلسطين يحملن الأطفال الشهداء مع أحزان فلسطين ليقبرنهم على دمع الشجر، وإن كانت أمريكا في صفهم وتسعى سعيهم في العدوان

على الأرض والأنفس فإن الله أكبر من كل شيء، وإن استهانت بقدراتنا فليس الكبر هو الذي يضع النصر، وإنما قد يكون صاحب الحق وإن كان صغيرا أقوى، فالإصرار والصمود والتشبث بالأرض قد يأتي بطاقة خارقة لا تحسب أمريكا لها حسابا"[1]، فيقول:

ما بيننا.. وبينكم.. لا ينتهي بعام

طويلةٌ معارك التحرير كالصيام

إنتظرونا دائما..

في كلِّ مالا يُنتَظَرْ

فنحن في كلِّ المطارات..

وفي كل بطاقات السفر

نطلع في روما.. وفي زوريخَ

من تحت الحجرْ

نطلع من خلف التماثيل

وأحواض الزَهَرْ

رجالنا يأتون دون موعدٍ

في غَضَبِ الرَّعْدِ.. وزخَّاتِ المطرْ

---

(١) نزار قباني والقضية الفلسطينية ص ١٢٢.

يأتون في عباءة الرسولِ..

أو سيفِ عمرْ..

نساؤنا..

يرسُمْنَ أحزان فلسطينَ على دمع الشجرْ

يقبرنَ أطفال فلسطينَ بوجدانِ البشرْ

نساؤنا..

يحملن أحجار فلسطين إلى أرض القمر

موعدنا حين يجيء المغيب

موعدنا القادم في تل أبيب

" نصر من الله وفتح قريب "(١).

فهو هنا واثق من أن النصر سيكون حليف الفلسطينيين، ولذا ختم هذه المقطوعة بالآية القرآنية " نصر من الله وفتح قريب " وذلك ليحفز المناضلين على الاستمرار في المقاومة، وليطمئن قلوبهم من أن الله معهم وسينصرهم عما قريب.

(١) الأعمال السياسية الكاملة ٣/ ١٧٨، ١٧٩.

ونزار حين يقف مع الحركات النضالية والفصائل المقاومة إنما كان يهدف إلى الحرية للشعب الفلسطيني من ذلك الصهيوني الغاشم، ولذا نراه يرفض مفاوضات السلام في أوسلو والصلح مع الإسرائليين حين يقول:

بعد هذا الغزل السري في أوسلو

خرجنا عاقرين

وهبونا وطنا نبلعه من غير ماء

كحبوب اسبرين[١]

فيرفض نزار توقيعات الصلح ومعاهداته، ويقف مع المقاومين الفلسطينيين في رفضهم لهذا الوليد المشوه ــ أعني صلح أوسلو ــ الذي ولدته معاهدات الصلح مع إسرائيل، فيقول:

ليس صلحا

ذلك الصلح الذي أدخل كالخنجر فينا

إنه فعل اغتصاب

.....

لن تساوي كل توقيعات أسلو خردلة[٢]

(١) نقلا عن نزار قباني والشعر السياسي – أحمد تاج الدين ص ٧١ ط الدار الثقافية للنشر.
(٢) المرجع السابق ص ٧٢.

فهو يرى أن هذا الصلح مؤامرة من قبل أمريكا وقوى الاستكبار العالمي، فنراه مخالفا للاستعمار الجديد، ومخالفا للتدخل الأجنبي في الشأن الفلسطيني، فيقول:

تزوجنا بلا حب من الأُنْثَى التي ذاتَ يومٍ أكَلَتْ

أولادَنَا

مَضَغَتْ أكبادَنا

وأخذنا إلى شهر العسل

لم يكن في العُرْسِ رقصٌ عربي

أو طعامٌ عربي

أو غناء عربي

فلقدْ غابَ عن الرِّقة أولاد البلد

كان نصفُ المهرِ بالدولار

كان الخاتم الماسيُّ بالدولار

كلها قد صنعت في أمريك

وانتهى العرسُ

ولم تحضر

فلسطين الفرح

ليس هذا العرس عرسي

ليس هذا الثوب ثوبي

ليس هذا العار عاري

أبدا يا أمريكا[١].

وصورة المقاوم عند نزار قباني لم تقف عند المقاومة بالسلاح بل نراه يقف مع الشعراء الذين بذلوا لسانهم وكلماتهم في سبيل الذود عن الوطن، إذ هم يمثلون صورة أخرى للمقاوم الفلسطيني، فحين نفذت إسرائيل مذبحة مروعة لرموز المقاومة الذين كانوا ينبضون بالإصرار والإرادة، ومن جمعوا بين النضال والطاقة الأدبية ذات التأثير العميق، قتلوا " كما ناصر وكمال عدوان وأبي يوسف النجار وزوجته " [٢]، وكان وقع هذه المجزرة شديدا على نزار قباني فكتب " عرس الخيول الفلسطينية " حيث صور من خلالها حزنه الشديد عليهم وصدمته الكبرى لاغتيالهم، وهم رفاق الكلمة، ومن الذين جمعوا بين المقاومة بالكلمة والمقاومة بالسلاح، فيقول في مشهد مهيب:

بشارع فردان كانت تموت الخيول الجميلهْ

(١) نقلا عن نزار قباني والشعر السياسي – أحمد تاج الدين ص ٧٣، ٧٤.

(٢) كما ناصر وكمال عدوان وأبي يوسف النجار وزوجته، اغتالتهم الأيادي اليهودية في منازلهم بشارع فردان ببيروت عام ١٩٧٣م، وكانوا من الشعراء الفلسطينيين والمناضلين في الوقت ذاته.

بصمتٍ..

وتختار ميْتتَها النادرهْ

يقولون: إن الخيول بفطرتِها

تعاني من العشق أيضا

وتعرفُ معنَى الفِراقِ ومعنى الشَّجَنْ

وتقرأُ أحسنَ منَّا جميعا

كتاب الوطنْ

لماذا يسمونه مأتمًا؟

لقد كان أروعَ عُرسٍ رأته المدينهْ

صديقي كمال:

صديق الدفاتر.. والحبر.. والكلمات الجديدة

أكلُّ الرصاص الذي أطلقوه عليك ؟

لقتل قصيدهْ

أكل الثقوب التي تركوها على شفتيك؟

لقتل قصيدهْ..[1]

(١) الأعمال السياسية الكاملة ٣/ ١٩٩، ٢٠٠.

ويبدو ذلك أيضا في قصيدته " شعراء الأرض المحتلة " [١]، فنرى " نمذجته شعراء الأرض المحتلة كنموذج بطولي من شاعر مسئول وطني يبذل كلماته في الذود عن الوطن... ورسمهم كنموذج لكل شاعر معاصر مناضل " [٢].

فيقول عنهم:

شعراء الأرض المحتلة

يا شجر الورد النابت من أحشاء الجمْرْ

يا مطرا يسقط رغم الظلم ورغمَ القهْرْ

نتعلم منكم..

كيف يغني الغارقُ من أعماقِ البئرْ

نتعلم كيف يسير على قدميه القبرْ

نتعلَّم كيف يكون الشِّعرْ

فلدينا قد مات الشُّعراءُ.. ومات الشعرْ

الشعر لدينا درويشٌ

(١) الأعمال السياسية الكاملة ١٤٩/٣.

(٢) نزار قباني والشعر السياسي ص ١٢٩.

يترنحُ في حلقات الذكرْ (١)

فمن خلال ذلك يتضح أن نزار قباني كان شديد الاعتزاز والثقة بالمقاوم الفلسطيني، فقد كان لفترة يطالب بحقوقه لدى الأمم المتحدة لكن دون جدوى فكان التصميم على استرداد الحق بالقوة، فزيَّتَ سلاحه، وأخرج حصانه، وانطلق يناضل ويدفع دمه في سبيل الوطن دون حساب.

(١) الأعمال السياسية الكاملة ٣/ ١٥٣، ١٥٤.

الفصل الثاني

دراسة فنية في شعر نزار قباني عن فلسطين

أولا: اللغة في شعر نزار قباني

تتميز اللغة العربية بأنها لغة شاعرة، وتعد اللغة من أهم العناصر التي يعتمد عليها الشاعر في بناء القصيدة، واللغة الشعرية هي الكائن الحي في أعماق الشاعر ووجدانه وأحاسيسه، وهو يعبر بها عن تلك المشاعر والأحاسيس " وصدق الشاعر في تلك المشاعر يتضح من تراكيبه اللغوية، فاللغة إذن كنز الشاعر وثروته، وهي جنيته الملهمة، في يدها مصدر شاعريته ووحيه، فكلما ازدادت صلته بها وتحسسه لها كشفت عن أسرارها المذهلة، وفتحت له كنوزها الدفينة " (١).

كما أن اللغة من خلال العوامل التي تؤثر في تشكيلها ــ الثقافة والتجربة الخاصة والموقف أو الرؤية ــ أساس التمييز بين شاعر وآخر، أو تجربة وأخرى من تجارب الشاعر الواحد (٢).

ومن هنا يتضح أن إبداع الشاعر اللغوي، وتتبع المستويات التعبيرية لتجربته الشعرية، ومدلول ألفاظه ووقعها النفسي الخاص يتحقق من خلال

---

(١) الشاعر واللغة – نازك الملائكة مجلة الآداب العدد العاشر سنة ١٩٧١م.

(٢) الشعر العربي المعاصر د / عز الدين إسماعيل ص ١٠٨ ط دار الفكر العربي ط ٣ سنة ١٩٨٧ م.

التعرف على معجم الشاعر والوقوف على دلالاته التي تكشف عن نظرة الشاعر للوجود وموقفه من الراهن المعاش.

وإذا حاولنا تتبع المعجم الشعري لنزار قباني في شعره عن فلسطين نجد أن مفردات معجمه الشعري " موجودة على شفاه الناس، وتعامله كان مع الكلمات الساخنة والطازجة والمعجونة بلحم الناس وأعصابهم ووقائع حياتهم اليومية " (١).

فالعلاقة بين الغرض الذي يتناوله نزار وبين اللغة التي يستخدمها في إيصال تجربته إلى المتلقي علاقة قوية ومباشرة، فاللغة عنده تتباين بتباين الأغراض حيث " يستخدم الشاعر الألفاظ الجزلة والفخمة في المواضع التي ينبغي أن تستعمل فيها، ويأتي الشاعر بالألفاظ السهلة الرقيقة في المواضع التي تتطلبها، وأن تكرار الموضوعات وتكرار المعاني لها تأثير على البناء الأسلوبي للغته " (٢).

ونزار قباني في معجمه الشعري عن فلسطين يميل إلى حد ما للخطابية في بعض قصائده، وتأتي لغته تقريرية مباشرة في قصائد أخرى لكنه اهتم بإيصال الفكرة عبر استخدامه لقاموس مفردات مألوفة.

ولذلك يمكن لقاريء شعر نزار مهما كانت درجة ثقافته أن يفهم شعره دون العودة إلى معجم للألفاظ، وذلك لأن الكلمات الغريبة قد غابت عن

(١) أسئلة الشعر – منير العكش – ص ١٨٨ ط المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
(٢) نزار قباني والقضية الفلسطينية د / ميرفت دهان ص ١٦٠.

معجمه وحلت محلها كلمات تنتمي إلى الألفة والسهولة والانتشار، فهو يخلق العبارة ويركز فكره للبحث عن لفظة تكون وليدة المعنى الذي في ذهنه، وهذا لا ينفي الإبداع في نصوصه التي خضعت لانفعالاته وتفاعله مع هموم المجتمع الفلسطيني والعربي بصفة عامة.

ومن خلال ذلك نلحظ اعتماد نزار على اللغة المباشرة والمفردات ذات البعد الواحد، ولم تكن تحوي إيحاءات عدة، فالمفردات تحمل معناها الخارجي فقط ولا تحتاج إلى استبطان الألفاظ، مثل قوله:

يا قدس يا منارة الشرائع

يا طفلة محروقة الأصابع

حزينة عيناك يا مدينة البتول

يا واحة ظليلة مرَّ بها الرسول

حزينة حجارة الشوارع

حزينة مآذن الجوامع

يا قدس يا مدينة تلتف بالسواد

من يقرع الأجراس في كنيسة القيامة (١)

(١) الأعمال السياسية الكاملة ٣ / ١٦٨.

فجاءت الألفاظ " يا قدس – مدينة البتول – كنيسة القيامة " في لغة مباشرة بعيدة عن الإيحاء والاستبطان.

ومثل ذلك أيضا قوله في قصيدة " حوار مع أعرابي أضاع فرسه"[1]:

لو يكتب في يافا الليمون لأرسل آلاف القبلات

لو أن بحيرة طبريا تعطينا بعض رسائلها

لاحترق القاريء والصفحات

لو أن القدس لها شفة

لاختنقت في فمها الصلوات

لو أن..

وما تجدي (لو أن) ونحن نسافر في المأساة

ونمد إلى الأرض المحتلة جبلا شعري الكلمات

ونمد ليافا منديلا طُرِّز بالدمع وبالدعوات

فالكلمات " يافا – بحيرة طبريا – القدس – الأرض المحتلة " أتت أيضا في لغة تقريرية مباشرة بعيدة عن الإيحاء والاستبطان.

وعلى الرغم من كثرة الألفاظ الدالة على التقريرية المباشرة في شعره عن فلسطين، فقد عمد نزار أيضا إلى العديد من المفردات اللغوية التي

---

(١) السابق ص ٢١٥.

تحمل في طياتها إيحاءات عديدة، وتحمل في داخلها معاني أخرى تضاف إلى معانيها الخارجية، مثل قوله في قصيدة " منشورات فدائية على جدران إسرائيل "[1]:

أنا الفلسطيني

بعد رحلة الضياع والسراب

أطلع كالعشب من الخراب

أضيء كالبرق على وجوهكم

أهطل كالسحاب

أطلع كل ليلة

من فسحة الدار.. ومن مقابض الأبواب

من بركة الماء

ومن ثرثرة المزراب

فالألفاظ في هذه القصيدة توحي بالقوة والصمود كما أنها تبرز صورة المقاوم الفلسطيني الفدائي الذي أصبح جبارا قويا صامدا، كما أنها توحي بالهوية الفلسطينية المتمكنة في نفس المقاوم الفلسطيني الذي يخرج من كل شيء مؤكدا هويته ومحافظا عليها ومدافعا عنها.

(١) الأعمال السياسية الكاملة ١٦٥/٣.

ونلمح مثل هذه اللغة غير المباشرة التي تحمل في طياتها الكثير من الرموز والإيحاءات في نماذجه التي يرتكز فيها على الرمز الديني والتاريخي على نحم ما سنبينه.

وعلى الرغم من فصاحة ألفاظ نزار قباني في شعره عن فلسطين إلا أنه قد وقع في استخدام بعض الألفاظ العامية، مثل قوله في قصيدة " منشورات فدائية على جدران إسرائيل ": إسوارة – خبزها المرقوق، وقوله في قصيدة " الممثلون ": حشيشة – شهادة الكفاءة، وقوله في قصيدة " حوار مع عربي أضاع فرسه ": الطرطور – أراجوزي.

وقلة هذه الألفاظ في شعره عن فلسطين إذا قيست بغيرها من الأغراض الشعرية عنده إنما يرجع إلى جلال الموضوع الذي يتحدث عنه وهو (فلسطين).

ثانيا: التكرار

يعد التكرار من الظواهر الأسلوبية التي تستخدم لفهم النص الأدبي إذ " يعتمد في طبيعته على الإعادة لقوالب لغوية متنوعة ومختلفة في إيقاعاتها وطاقاتها الإيحائية التي تعتمد على اللغة الشعرية ذات الدلالات والطاقات التى تميز الشعر عن النثر"[١].

(١) مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة العدد العشرون مقال بعنوان " ملامح التشكيل الإيقاعي في شعر عبد الرحمن صالح العشماوي – دراسة في ديوان القدس أنت".

فالتكرار لا يقوم فقط على مجرد تكرار اللفظة في النص الشعري، وإنما ما تتركه هذه اللفظة من أثر انفعالي في نفس المتلقي، وبذلك " فإنه يعكس جانبا من الموقف النفسي والانفعالي، ومثل هذا الجانب لا يمكن فهمه إلا من خلال دراسة التكرار داخل النص الشعري الذي ورد فيه، فكل تكرار يحمل في ثناياه دلالات نفسية وانفعالية مختلفة تفرضها طبيعة السياق الشعري، ولولم يكن ذلك لكان تكرار الجملة من الأشياء التي لا تؤدي إلى معنى أو وظيفة في البناء الشعري، لأن التكرار إحدى الأدوات الجمالية التي تساعد الشاعر على تشكيل موقفه وتصويره"(١).

وتأتي ظاهرة التكرار في الشعر العربي بالعديد من الأشكال فمنها الحرف والكلمة والعبارة والبيت الشعري، وكل شكل من هذه الأشكال يعمل على إبراز جانب تأثيري للتكرار داخل النسق الشعري.

وقد برزت هذه الظاهرة بشكل لافت عند نزار قباني في شعره عن فلسطين، وتشكلت في العديد من المحاور على النحو التالي:

١- تكرار اللفظة

لما كانت اللغة أداة مهمة لنقل الشعور والتعبير عن التجربة الشعرية، استطاع الشاعر أن يكرر لفظة واحدة في قصيدة واحدة أو في قصائد

(١) ظاهرة التكرار في شعر أبي القاسم الشابي " دراسة أسلوبية " د/ زهير أحمد منصور بحث منشور بمجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية – مكة المكرمة العدد السابع عام ٢٠٠٢م.

متعددة بما يحمل من الدلالات ما يوازي الإحساس الكامن في ذات الشاعر، ويدفعه ذلك إلى تأكيد هذا الإحساس وتسليط الأضواء عليه.

ولكي يعطي تكرار اللفظة ثماره المرجوة، فإنه " ينبغي أن يكون اللفظ المكرر وثيق الارتباط بالمعنى العام، وإلا كان لفظية متكلفة لا سبيل إلى قبولها، كما أنه لابد أن يخضع لما يخضع له الشعر عموما من قواعد ذوقية وجمالية بيانية، فليس من المقبول أن يكرر الشاعر لفظا ضعيف الارتباط بما حوله، أو لفظا ينفر منه السمع"[١].

فتكرار اللفظة لابد أن يتعلق تعلقا مباشرا ببناء القصيدة العام، وهذا ما فعله نزار قباني في قصيدته " منشورات فدائية على جدران إسرائيل " حين يقول:

باقون في آذارها

باقون في نيسانها

باقون كالحفْر على صلبانها

باقون في نبيها الكريم، في قرآنها

وفي الوصايا العشر[٢]

(١) قضايا الشعر المعاصر – نازك الملائكة ص ٢٢٩ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٢) الأعمال السياسية الكاملة ١٦٨/٣.

فنزار يكرر هنا كلمة " باقون " أربع مرات متتالية لتبرز إحساسه بالإصرار على الصمود والتحدي، وهي كلمة تقرع السمع وتنزل الفزع في قلوب اليهود، إذ يخاطبهم بها ويتحداهم للبقاء في فلسطين.

وفي قصيدته " قصة راشيل شوار زنبرغ " يقول:

أكتب للصغار

للعرب الصغار حيث يوجدون

لهم

على اختلاف اللون

والأعمار

والعيون

أكتب للذين سوف يولدون

أكتب للصغار قصة بئر السبع

واللطرون[١] والخليل

أكتب للصغار

عن يافا وعن مرفئها القديم

عن بقعة غالية الحجارة [٢]

---

(١) **اللطرون:** اسم دير بالقدس تلتف حوله أشجار الزيتون والعنب.

(٢) الأعمال السياسية الكاملة ٣/٢٧.

فقد اعتمد نزار قباني في هذه القصيدة على أسلوب الإلقاء والتقريع، وقد كرر كلمة " أكتب "، وقد تمثل فيها معنى مخاطبة الجيل الجديد، باعتباره جيل الأمل في استعادة فلسطين والأراضي المحتلة، وقمع إسرائيل وإيقافها عند هذا الحد من اغتصاب الحقوق والأرض.

وفي قصيدة القدس يقول:

يا طفلة جميلة محروقة الأصابع

حزينة عيناك يا مدينة البتول

حزينة حجارة الشوارع

حزينة مآذن الجوامع

يا قدس يا مدينة الأحزان

يا دمعة كبيرة تجول في الأجفان[1]

فتكرار لفظة " الحزن " جسدت حالة الحزن والجراح التي ألمت بنفسية الشاعر نتيجة الأفعال الصهيونية، كما توحي بالأنين والألم الذي يسيطر على الشاعر والمدينة معا من هول ما تلاقيه هذه المدينة المقدسة من الصهاينة.

(١) الأعمال السياسية الكاملة ٣/ ١٦٣.

وفي القصيدة نفسها يكرر نزار لفظة " القدس " التي تقرع الآذان وتجسد الحالة النفسية للشاعر، فعلى الرغم من استمرار لوعة الحزن والألم يبزغ الأمل من رحم هذا الحزن وتلك الدموع، فيلجأ الشاعر إلى تكرار لفظة " القدس " في قوله:

يا قدس يا مدينة الأحزان

يا دمعة كبيرة تجول في الأجفان

يا قدس يا مدينتي

يا قدس يا حبيبتي

غدا.. غدا سيزهر الليمون

وتفرح السنابل الخضراء والغصون

وتضحك العيون

وترجع الحمائم المهاجرة

إلى السقوف الطاهرة

ويلتقي الآباء والبنون

على رباك الزاهرة

يا بلدي.. يا بلد السلام (١)

---

(١) الأعمال السياسية الكاملة ٣١٦١.

فمع تكرار لفظة " القدس " وما توحيه من دلالات نفسية تحمل الأمل والفرح، أتى الشاعر بمجموعة من الأفعال المضارعة المتتالية الدالة على الفرح والبهجة والعودة، وهذه الأفعال هي " يزهر – تفرح – تضحك – ترجع – يلتقي)، وفي هذا دلالة على استمرار الأمل والتفاؤل عند الشاعر.

كما نلمح تكراره للفعل بصيغة الماضي الذي يدل على السرعة والتأكيد على وقوع الحدث في قوله:

قرَّرْتُ يا وطني اغتيالك بالسفر

وودعت السنابل والجداول والشجر

وأخذت في جيبي تصاوير الحقول

وأخذت إمضاء القمر

وأخذت وجه حبيبتي

وأخذت رائحة المطر(١)

فالشاعر هنا يأتي بالأفعال الماضية: قررت – حجزت – ودعت ، لتعطي معنى الرفض الحاد والمطلق للواقع العربي إزاء فلسطين على حين يأتي الفعل " أخذت " بصيغة الماضي أيضا أربع مرات لمقابلة الأفعال السابقة لتؤكد الرغبة الشديدة في العودة إلى الوطن مرة أخرى، فهي توحي بالحنين إلى الوطن على الرغم مما فيه من استعمار وقهر ودمار.

(١) الأعمال السياسية الكاملة ٢٣٨/٣.

وفي القصيدة نفسها يؤكد على هذا الرفض الحاد حين يكرر الفعل " أرفض " بصيغة المضارع لتظهر روح المقاومة والتحدي مع استمرار رفض الشاعر للواقع العربي المليء بالتخاذل والذل والانكسار، فيقول:

أرفض ميراث أبي

وأرفض العلم الذي علمني

أرفض (ألف ليلة)

والقمقم العجيب والمارد والسجادة السحرية

أرفض سيف الدولة المغرور والقصائد الغبية

هذا بالإضافة إلى العديد من الألفاظ التي شاعت وتكررت في شعره عن فلسطين مثل لفظ " الضياع "، وهي لفظة تكررت بشكل كبير وبصيغ مختلفة " ضاعت – أضاعها " وهي توحي بمأساة الشاعر المستمرة وحزنه على ضياع فلسطين.

وكذلك لفظة " اليهود " فتأتي " أقذر اليهود – اعتقلها اليهود – اليهود والطاعون" فهذه اللفظة عنده تأتي مصحوبة بالقذارة تارة وبالطاعون تارة أخرى، وهذا يدل على مدى بشاعتهم وقذارة أفعالهم.

وأيضا تكراره لكثير من أسماء المدن الفلسطينية وعلى وجه الخصوص مدينة القدس، وهي المأساة الكبرى، وهي الوجع الأكبر، وهي

مدينة الشرائع، وهي الأرض المقدسة، وهو يريد بهذا التكرار أن يبقى ذكر المدن الفلسطينية حاضرا في الذاكرة العربية ليبقى الأمل في استعادتها.

٢- تكرار العبارة (اللازمة)

وهي عبارة عن " مجموعة من الأصوات أو الكلمات التي تعاد في الفقرات أو المقاطع الشعرية بصورة منتظمة، واللازمة على نوعين، اللازمة الثابتة: وهي التي يتكرر فيها بيت شعري بشكل حرفي، واللازمة المائعة: وهي التي يطرأ فيها تغيير خفيف على البيت المكرر"(١).

وتكرار العبارة أو اللازمة يعمل على ربط أجزاء القصيدة وتماسك بنائها مما يكشف عن إمكانيات تعبيرية وطاقات فنية تثري المعنى خاصة إذا استطاع الشاعر أن يسيطر على تكراره وأن يأتي به في موضعه، بحيث يؤدي خدمة فنية ثابتة على مستوى النص الشعري.

ولقد استخدم نزار قباني تكرار العبارة (اللازمة) بشكل كبير في شعره عن فلسطين، وجاء تكرار العبارة عنده غير ثابت ولا مستقر شأنه في ذلك شأن حالته النفسية المضطربة بين حالة الأوضاع في فلسطين وما يطمح إليه الشاعر، ومجسدة عذاباته وآهاته وأمنياته في التغيير لإعادة الأقصى السليب.

(١) التكرار في الشعر الجاهلي د/ موسى ربابعة ص ٣٧، بحث مقدم لمؤتمر النقد الأدبي الثاني سنة ١٩٨٨م، جامعة اليرموك، إربد.

ونلمح مثل ذلك عند نزار قباني حين يأتي تكرار العبارة عنده بشكل تفجعي مؤلم حين يصور الواقع العربي المتخاذل عن قضية فلسطين مع تحديه في الرجوع مرة أخرى لفلسطين من خلال تكراره لعبارة " نحن راجعون " فيقول:

وصوت فيروز من الفردوس يأتي

" نحن راجعون "

تغلغل اليهود في ثيابنا

و" نحن راجعون "

ناموا على فراشنا

و" نحن راجعون " وكل ما نملك أن نقوله

" إنا إلى الله لراجعون"(١)

كما يستخدم الشاعر تكرار عبارة " يا فلسطين " لتصور حالة اليأس التي أصابته من تخاذل العرب، فيطلب من فلسطين عن طريق التكرار أن لا تستغيث بمن فقدوا الحمية العربية فيقول:

يا فلسطين.. لا تزالين عطشى وعلى النفط نامت الصحراء
يا فلسطين.. لا تنادي عليهم قد تساوت الأموات والأحياء

(١) الأعمال السياسية الكاملة ١١٣/٣.

يا فلسطين.. لا تنادي قريشا فقريش ماتت بها الخيلاء[1]

ومن تكرار العبارة عنده أيضا، تكراره عدة ألفاظ في مطلع كل بيت مما هي دون السطر الواحد، مثل قوله في قصيدة " فتح" [2]:

ولم يزل خنجر إسرائل في ظهورنا

ولم نزل نبحث في الظلام عن قبورنا

ولم نزل كالأمس أغبياء

ولم نزل نظن أن الله في السماء

يعيدنا لدورنا

ولم نزل نظن أن النصر

وليمة تأتي لنا.. ونحن في سريرنا..

ولم نزل نقعد من سنين

فتكرار عبارة " لم نزل " في مطلع كل بيت دليل على تجمع حالة شعورية عميقة لدى الشاعر، من جراء الاستمرار في خوض غمار المعارك ضد العدو الإسرائيلي دون فائدة، فكانت عبارته المتكررة " لم يزل " جسرا علق عليه خيبة الأمل وحالة مريرة تؤرق عليه حياته.

(١) الأعمال السياسية الكاملة ٣/ ٤٠٥.

(٢) الأعمال السياسية الكاملة ٣/١٤٥.

ويأتي تكراره للعبارة في صورة لازمة تتكرر في عدة مواضع من القصيدة الواحدة مثل قصيدته " شعراء الأرض المحتلة"[1]:

شعراء الأرض المحتلة

يا من أوراق دفاتركم

بالدمع مغمسة والطين

يا من نبرات حناجركم

تشبه حشرجة المشنوقين

شعراء الأرض المحتلة

يا أجمل طير يأتينا من السر

يا حزنًا شفاف العينين

شعراء الأرض المحتلة

يا ضوء الشمس الهارب من ثقب الأبواب

يا قرع الضوء القادم من أعماق الغاب

فاللازمة المكررة هنا هي " شعراء الأرض المحتلة "، ونزار " يكرره بصيغة الخطاب وصيغة الثناء على شعراء الأرض المحتلة، وكأنه يود أن يصبح جميع الشعراء العرب على مستوى الوعي القومي الذي يتمتع به

(١) الأعمال السياسية الكاملة ٣/ ٥١ – ١٥٣ – ١٥٥.

شعراء الأرض المحتلة، وله مأخذ على الكتاب العرب الذين لا يزالون يتشاغلون بالصرف والإعراب وينادون ربهم القوي الغلاب أن يغلب اليهود،ويدحرهم وراء حرمات القدس"[١].

وقد يلجأ نزار في تكراره للعبارة إلى الاعتماد على معنى العبارة دون لفظها، وفي هذا النوع من التكرار " لا يلجأ الشاعر إلى تكرار عبارة معينة عدة مرات في القصيدة لكنه يأتي بالجملة أو العبارة ثم يردفها بصفات تؤكد معناها فقط، أو توضح هذه الجملة وتلك العبارات "[٢].

وتتجلى هذه الطريقة لدى نزار عندما يتحدث عن القدس قائلا:

يا قدس.. يا مدينةً تفوحُ أنبياء

يا أقصر الدروب بين الرض والسماء

يا قدس يا منارة الشرائعْ

يا طفلة جميلة محروقة الأصابعْ

يا واحة ظليلة مرَّ بها الرسول

يا قدس يا مدينة تلتف بالسواد

يا قدس يا مدينة الأحزان

---

(١) نزار والقضية الفلسطينية ص ٢١٣.

(٢) نزار قباني شاعرا سياسيا ص ٢١٨.

يا دمعة كبيرة تجول في الأجفان[١]

فالعبارات " يا قدس، يا مدينة " كررت ثلاث مرات، وفي المرة الرابعة كانت " يا قدس يا منارة " ، وما بين هذه العبارات المتكررة لم يخرج المعنى عن هذه العبارات،" فالقدس هي أقصر الدروب، وهي الطفلة الجميلة ذات الأصابع المحروقة، وهي الدمعة الكبيرة، وتكرار لفظة القدس نفسها داخل العبارة كانت في كل مرة تدق الجرس معلنة تفريعا جديدا للمعنى الأساسي الذي تقوم عليه القصيدة"[٢].

وتتوالى عند نزار قباني تكرار العبارات الاستفهامية التي تبرز انفعالاته النفسية وتكشف آلامه وأحزانه تجاه فلسطين، ومن ذلك تكرار الاستفهام " مَنْ " بعد ضياع القدس ووقوعها أسيرة في يد اليهود حقلا خصبا في شعر نزار إذ نجد الاستفهام المكرر " مَنْ " يقطر دما وحسرة وألما فيقول:

من يقرع الأجراس في كنيسة القيامه ؟

من يحمل الألعاب للأولاد ؟

من يوقِفُ العُدْوانْ ؟

من يغسل الدماء عن حجارة الجدران ؟

---

(١) الأعمال السياسية الكاملة ١٦٢/٣، ١٦٣.

(٢) نزار قباني شاعرا سياسيا ص ٢٢٠.

مَنْ يُنقذ الإنجيل ؟

من ينقذ القرآن ؟

من ينقذ المسيح ممن قتلوا المسيح ؟

من ينقذ الإنسان ؟ (١).

ومنه أيضا تكرار الاستفهام بـــ " متى " التي تفيد الاستنكار في قصيدة "الممثلون"(٢) حين يقول:

متى سترحلون ؟

المسرح انهار على رؤوسكم

متى سترحلون ؟

والناس في القاعة يشتمون.. يبصقون.

وهذا التكرار الاستنكاري من الشاعر إلى الحكام العرب قد أدى دوره وأجاد، إذ يشير في فحواه إلى طلب الشاعر الإسراع في رحيلهم عن أعناق العباد.

ويتأكد هذا التكرار الاستنكاري بـــ " متى " حين يتوجه الشاعر بحديثه إلى حكام النفط مستنكرا عليهم حضارتهم الزائفة، فيأتي بـــ " متى " منفردة أحيانا، وفي أحيان أخري " متى تفهم "، كقوله:

---

(١) الأعمال السياسية الكاملة ١٦٣/٣.

(٢) الأعمال السياسية الكاملة ١١٠/٣.

متى تفهم ؟

متى يا سيدي تفهم ؟

بأني لستُ واحدةً

كغيري من صديقاتك

متى تفهم ؟

متى تفهم ؟

أيا جملا من الصحراء لم يلجم؟

ويا من يأكل الجدري منك الوجه والمعصم..

متى تفهم ؟

متى تفهم ؟

بأنك لن تخدرني

بجاهك أو إماراتك

متى يا أيها المُتْخَمْ؟

متى تفهم ؟

متى يستيقظ الإنسان في ذاتك [1].

(١) الأعمال السياسية الكاملة ٣/٦١ – ٦٣.

فهنا تبرز بوضوح مشاعر الشاعر تجاه حكام النفط الذين لم يستغلوا ما لديهم من كنوز من أجل خلاص فلسطين، فالتكرار هنا يولد مرارة كبيرة عند السامع، كما أنه يعكس مرار الشاعر وحزنه، لأنه بتكرار هذه العبارة – متى تفهم – وتناغمها مع التكرار المنفرد لـــ " متى " تشعر بحالة من القنوط واليأس، وكأن حكام النفط في رؤيته قرروا عدم الفهم، وأصبح فهمهم بعيدا عن غرائزهم أمرا بعيد المنال.

ومن خلال ذلك يتضح أن نزار قباني كان واحدا من الشعراء العرب الذين أجادوا في استخدام التكرار بأنواعه في شعره بصفة عامة وفي شعره عن فلسطين على وجه الخصوص، وهو لم يتخذ لفظة في غير موضعها أو عبارة في غير مكانها، بل جاء أسلوبه متناغما مع حالته النفسية والشعورية التي سيطرت عليه أثناء حديثه عن فلسطين وحديثه عن الحكام العرب وبيان مواقفهم تجاه القضية الفلسطينية.

ثالثا: التشكيل الإيقاعي

يشكل الإيقاع ركنا أساسيا وعنصرا مهمًا يعتمد عليه الشاعر في بناء قصيدته، نتيجة لما يوفره من ألوان الموسيقى والتناغم التي تعد من أبرز أركان الشعر وأعظمها شأنا، وأسرعها إلى نفوسنا لما فيها من جرس الألفاظ، وانسجام في توالي المقاطع.

فالشعر " لا يعلو شأنه وتسمو قيمته إلا بما يحتويه من جمال الموسيقى ولحن الإيقاع، ولا تقف أهمية الموسيقى عند التأثير في نفس السامع بل

تزيد من انتباهنا وتضفى على الكلمات الحياة، وعلى ذلك فالشعراء يتمسكون بموسيقى الشعر حتى يتسنى لهم توفير الجذب والتأثير"[١].

ويدور التشكيل الإيقاعي في شعر نزار عن فلسطين حول:

الوزن والقافية: فمما لاشك فيه أن الأوزان الموسيقية تتنوع بتنوع الدفقات الشعرية التي تخضع لإيقاع موسيقى نفسي، " ويكون هذا الإيقاع في وحدة وزنية منسجمة متكررة تسمى التفعيلة، سواء اتفقت تفعيلات الوزن أم اختلفت، والوزن في حقيقته يساعد على خلق التوازن في النفس بحيث يصبح الوزن أداة بواسطتها يمكن للشاعر السيطرة على عواطفه من خلال تجربته الثائرة المتوترة، وبذلك يمكن للوزن أن يكتسب قيمته الجمالية في قدرته على خلق إيقاع عام للقصيدة "[٢].

وإذا نظرنا إلى الأوزان التي استخدمها نزار قباني في شعره عن فلسطين نجدها استعملت على النحو التالي:

١- بحر الرجز: ورد خمس مرات في قصائد " فتح – القدس – منشورات فدائية على جدران إسرائيل – الحاكم والعصفور – طريق واحد ".

(١) نزار قباني والقضية الفلسطينية د/ ميرفت دهان ص ١٩٦.

(٢) مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة العدد العشرون الجزء الثاني ص ٢٦١.

٢- بحر الرمل:ورد ثلاث مرات في قصائد " الخطاب – أطفال الحجارة – المهرولون ".

٣- بحر الخفيف: ورد في قصائد " إفادة من محكمة الشعر – ترصيع بالذهب على سيف دمشقي – الغاضبون ".

٤- بحر المتدارك: ورد ثلاث مرات في " حوار مع أعرابي أضاع فرسه – دكتوراه شرف في كيمياء الحجر- شعراء الأرض المحتلة".

٥- بحر الكامل: ورد مرتين في " جريمة شرف أمام المحاكم العربية- بلقيس".

٦- بحر المتقارب: ورد في قصيدة واحدة هي: عرس الخيول الفلسطينية.

وقد جاءت أكثر قصائد نزار في شعره عن فلسطين معتمدة على الأوزان الصافية لانسيابها وتجانسها، وحتى لا ينشغل عن تدفق القصيدة بالهاجس العروضي فيما لو أكثر من استعمال البحور المركبة.

ونزار في استخدامه للأوزان الصافية يعطي لنفسه فضاء واسعا يعبر من خلاله عن تجاربه الشعرية، كما أنه " يطمح إلى حرية أكبر في التشكيل الوزني لقصائده، وبالتالي في بنائه الشعري، هذه الحرية تحققها وحدة التفعيلة في الأوزان البسيطة حيث يسهل تكرارها وتدفقها بعكس

الحال مع الأوزان المركبة التي ترهق الشاعر وتتطلب منه جهدا في كيفية التناوب بين التفعيلتين اللتين يتكون منهما الوزن المركب"[1].

بالإضافة إلى أن الأوزان الصافية التي استخدمها نزار في شعره عن فلسطين أوزان خافتة بشكل عام، ويتجسد هذا الخفوت في قوله من بحر الكامل:

لو أنهم حملوا إلينا..

من فلسطين الحزينة..

نجمة..

أو برتقالهْ

لو أنهم حملوا إلينا

من شواطيء غزة

حجرًا صغيرًا

أو محارهْ

لو أنهم من ربع قرن حرروا

زيتونةً

(١) مستويات البناء الشعري عند محمد إبراهيم أبو سنة (دراسة في بلاغة النص) د/ شكري الطوانسي ص ٢٨ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨م.

أو أرجعوا ليمونةً

ومحوا عن التاريخ عارهْ

لشكرت من قتلوك.. يا بلقيس..

يا معبودتي حتى الثمالهْ

لكنهم تركوا فلسطينًا

ليغتالوا غزالهْ (١)

فلقد عبر إيقاع هذه القصيدة عن الجو النفسي بما يشوبه من حذر وشك وتوتر نتيجة الحزن الذي يسطر عليه من اغتيال زوجته بلقيس أو اغتيال فلسطين، فيبتعد نزارعن الجهارة ويجنح إلى الهمس والخفوت الذي يظهر من تفعيلة بحر الكامل وكذلك من القافية الساكنة ــ المقيدة ــ في قوله: أو برتقاله – أو محاره – ومحو عن التاريخ عاره – حتى الثماله – ليغتـــالوا غزاله.

وعلى الرغم من اعتماد الشاعر على الأوزان الصافية التي تتصف بالخفوت والهدوء فقد حشد الشاعر في بعض تجاربه عن فلسطين ألوانا من البنى الموسيقية التي فيها قوة وحركة ونبض، فلجأ إلى بحر المتدارك ومناسبته " للأجواء التصويرية التي يصلح فيها أن يكون النغم عاليا "(٢)،

(١) قصيدة بلقيس لنزار قباني ص ٦٨: ٧١.

(٢) قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة ص ٣٣.

كما أن "موسيقى هذا البحر... انعكاس لشدة الانفعال وتأجج العاطفة وتوقدها"[١]، ويبدو هذا من كون الشاعر مخذولا في عواطفه من ناحية الأوضاع السياسية التي كانت محكا أساسيا في تجاربه عن فلسطين ورؤيته للواقع العربي تجاه هذه القضية، ولهذا يقول من المتدارك:

لو أعطى السلطة في وطني

أعدمت جميع المنبطحين على أبواب مقاهينا

وقصصتُ لسانَ مُغنِّينا

وفقأت عيون القمر الضاحك من أحزان لياليا

وكَسَرْتُ زجاجَتَه الخضراءْ

وأرحْتُكَ يا ليلَ بلادي

من هذا الوحش الآكل من لحم البسطاءْ [٢]

فنزار هنا يستعين بقوله: أعدمت ــ فقأت ــ كسرت، فهــذه الألفــاظ بقيمتها الصوتية جاءت معبرة عن ثورته وغضبته إزاء التقاعس العربي، كما أنها تعكس الحالة النفسية للشاعر المتأثرة بالهمِّ الفلسطيني.

كما يلاحظ اعتماد الشاعر على بحر الرجز بصورة أوسع في شعره عن فلسطين، إذ يعطيه فرصة للبوح بكل ما يريده عن طريق ما يمتاز به

(١) موسيقى الشعر بين الثبات والتطور د/ صابر عبد الدايم ص ١٠١.
(٢) الأعمال السياسية الكاملة ٣/٢٢٣.

هذا الوزن من السرعة والتلاحق والطواعية لمشاعره وأحاسيسه، فيقول في قصيدة القدس:

يا قدس يا مدينة الأحزانْ

يا دمعة كبيرة تجول في الأجفانْ

من يوقف العدوان؟

عليك يا لؤلؤة الأديان

من يغسل الدماء عن حجارة الجدران؟

من ينقذ الإنجيل؟

من ينقذ القرآن؟

من ينقذ المسيح ممن قتلوا المسيح؟

من ينقذ الإنسان؟[1]

فحينما تطل برأسها مدينة القدس على النكبة التي كانت مرتين، مرة مع نكبة عام ١٩٤٨، وأخرى مع نتائج اتفاق أوسلو، نراها تنغص على الشاعر حياته، فتشتد إيقاعات روحه وتتسارع لتعبر عن صراعٍ يعتمل في عقله ووجدانه. ومن هنا تفوقت صورة " مستفعلن " حين أتت بتمامها في كثير من بدايات الأسطر الشعرية على حين ينتشر الزحاف والعلة بشكل

(١) الأعمال السياسية الكاملة ١٦٣/٣.

كبير في ثنايا تفعيلات القصيدة؛ لتخلق حالة من حالات التكثيف الصوتي والنغمي من جهة، ومن جهة أخرى ينقل الإيقاع في القصيدة من البطء إلى السرعة تماشيا مع طبيعة التجربة الشعرية توترا وهدوءا، فكلما تنوع الجو النفسي العام للنص ازداد عدد التفعيلات الزاحفة، ولعل هذا ما يفسر توارد الزحاف بكثرة في المقاطع ذات الدلالة النفسية المتميزة "[١].

فاحتياج الشاعر إلى السرعة يدفعه إلى الاستعانة بالزحاف وتقليص عدد المتحركات عن طريق إسكان الثاني المتحرك أو حذف الثاني الساكن مما يؤدي " إلى اختصار في عدد الأحرف، وتقليص في عدد المتحركات أي أنه من ناحية الأداء الصوتي سيعمل على اختصار الزمن، ولهذا فهو يتفق مع حالة الانفعال التي تحتاج إلى السرعة " [٢].

فهذا الاستخدام للزحاف يتفق مع طبيعة التجربة في هذه القصيدة التي احتاجت إلى سرعة الأحاسيس وتوترها أو اتئادها واستوائها، ومدى اتصال هذين الأمرين برؤية الشاعر وأحاسيسه تجاه هذه المدينة.

وبنفس هذه السرعة والتلاحق يأتي اعتماده على هذه الأوزان المستعملة في شعره عن فلسطين لتصويرها حالة القلق والتلاحق في مشاعره.

---

(١) البنية الإيقاعية في شعر فدوى طوقان رسالة ماجستير مخطوطة بكلية الآداب جامعة ورقلة – الجزائر سنة ٢٠٠٤م.

(٢) بناء القصيدة في النقد العربي القديم د/ يوسف حسين بكار ط دار الأندلس – بيروت ط٢ سنة ١٩٨٣م ص ١٧٢.

القافية:

أما القافية وأثرها الموسيقي فلم يغفله نزار قباني في جميع قصائده عن فلسطين، ويكفي أن نرى شكلها وتنوعها في النماذج التي أوردناها في ثنايا البحث لندلل على دورها في إكساب القصيدة نمطاً إيقاعياً يتردد في نهاية السطر الشعري فيضفي كماً موسيقياً يضاف إلى إيقاع وزنها، ويحدد أيضاً نوع الوقفة ودلالاتها النفسية، كما لاحظنا ميل الشاعر إلى تسكين قوافيه بشكل عام حتى لو كان موقعها الإعرابي يستدعي التحريك [1]، وحرصه على ذلك حتى وإن كان قد سبق هذا التسكين حرف مدّ ساكن، كما هو الأمر في قصائد " شعراء الأرض المحتلة – القدس – فتح " وأظن أن دلالة ذلك واضحة في تعميق حالة الحزن التي بيناها في أثناء الحديث عن الجو النفسي لهذه القصائد ، وقد لاحظنا أيضاً تنوع قوافيه وتغيرها مع اكتمال كل معنى داخل القصيدة الواحدة، الأمر الذي يسترعي انتباه القارئ ويولد حالة من الاهتمام، وكذلك تنوع هذه القوافي حسب المعنى والعاطفة، رقة وشدة، ما بين الحروف ذات الأصوات الانفجارية والحروف ذات الأصوات الرخوية اللينة، وقد تتابعت القوافي بنوعيها ــ ذات الجرس العالي والجرس الهادئ ــ وتباعدت حسب الموقف النفسي، وشواهد هذه الظواهر منتشرة بشكل ملفت في شعر نزار عن فلسطين .

(١) راجع في جواز هذا الأمر وتبريره: إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص ٢٦٠.

ونلاحظ مثل هذه القيم الموسيقية للقافية والتي تتسم مع طبيعة تجربته الشعرية قوله من بحر الخفيف:

لم نزل.. لم نزل نمصمص قشرا

وفلسطين خضبتها الدماء

سقطت في الوحول كل الفصاحات

ومات الخليل والفراء

يا فلسطين لا تنادي عليهم

قد تساوى الأموات والأحياء

يا فلسطين لا تنادي قريشا

فقريش ماتت بها الخيلاء[١]

فجاءت القافية على حرف الهمزة وهي " تدل على الجوفية، كما أنها وعاء للمعنى وتدل على الصفة تصير طبعا" [٢]، والهمزة حرف حلقي شديد عند النطق به " تنطبق فتحة المزمار انطباقا تاما فلا يسمح بمرور الهواء إلى الحلق، ثم تنفرج فتحة المزمار فجأة فيسمع صوت انفجاري"[٣]، وقد انعكست قوتها على عمق تجربة نزار وشدة ما يعانيه تجاه التخاذل

(١) الأعمال السياسية ٣٩٨/٣.

(٢) تهذيب المقدمة اللغوية – عبد الله العلايلي تحقيق أسعد أحمد علي ط دار السؤال – سوريا ط٣ سنة ١٩٨٥م ص ٣٥.

(٣) الأصوات اللغوية د/ إبراهيم أنيس ط نهضة مصر القاهرة – د.ط – د.ت ص ٨٠.

العربي، وخذلان العرب لإخوانهم في فلسطين ونومهم على الكرامة العربية المهدرة والجبن الذي أصبح طبعهم.

ونلمح ذلك أيضا في قوله من بحر البسيط:

سقوا فلسطين أحلاما ملونة

وأطعموها سخيف القول والخطبا

عاشوا على هامش الأحداث ما انتفضوا

للأرض منهوبة والعرض مغتصبا

وخلفوا القدس فوق الوحل عارية

تبيح عزة نهديها لمن رغبا

أيا فلسطين من يهديكِ زنبقة

ومن يعيد لك البيت الذي خربا (١)

فقد استخدم نزار في هذه القصيدة الباء متبوعة بألف الإطلاق " والباء تدل على بلوغ المعنى في الشيء بلوغا تاما"(٢)، والباء قوية إذ هي " صوت شديد مجهور"(٣)، فهذا الصوت بما يحمل من قوة وشدة وجهر يتفق وطبيعة التجربة لدي الشاعر، فكأن نزار يريد أن يبلغ ما يوحى إليه من

(١) الأعمال السياسية الكاملة ٣/٤٢١، ٤٢٢.

(٢) تهذيب المقدمة اللغوية د/ عبد الله العلايلي ص ٦٣ ط دار النعمان – لبنان ط ١ سنة ١٩٦٨.

(٣) موسيقى الشعر بين الثبات والتطور ص ٣١.

ضرورة تحرر فلسطين بالقوة، وقد أتبعها بألف الإطـــلاق ليكـــون لديـــه مساحة أكبر في المعنى الذي يرغب إليه فالخُطَب لم تعد تجدي أو تفيد.

ومن خلال ذلك يمكننا القول أن نزار قباني قد دار في فلـــك الإيقـــاع القديم وإن اعتمد في معظمه على الشعر الحر لكنه لم يخرج عن الأطـــر المتعارف عليها في الشعر العربي القديم مع مواكبته لحركات التجديد في تنوع القوافي ليعطي مساحة أكبر في تنوع الإيقاع الموسيقي في تجاربـــه الشعرية.

رابعا: توظيف الرمز التراثي في شعر نزار قباني عن فلسطين

تعد الرمزية استنباطا لما وراء الحس من المحسوس، فعالم مـــا وراء الحس هو العالم الحقيقي وإليه ترمز صورة العالم الحسي لما بين العالمين من علاقات ووشائج " فالرمز الشعري يبدأ من الواقع المادي المحـــسوس ليحول هذا الواقع إلى واقع نفسي وشعوري تجريدي بعيـــد عـــن التحديـــد الصارم، غير أنه توجد خطوط دقيقة بين الرمز والصورة، فالفرق بينهما ليس في نوعية كل منهما بقدر ما هو في درجته من التركيب والتجريـــد، فالرمز وحدته الأولى صورة حسية تشير إلى معنوي لا يقع تحت الحواس، ولكن هذه الصورة بمفردها قاصرة عن الإيحاء"[١].

(١) الخصائص الفنية في شعر محمد هاشم رشيد د/ عبد الرحمن محمد الوصيفي ص ٢٢٦ بدون طبعة.

ولقد أكثر الشعراء المعاصرون من توظيف الرمز التراثي في أشعارهم خاصة بعد هزيمة ١٩٦٧م، إذ " أحس الشاعر المعاصر أن هذه الهزيمة قد عصفت بكيانه القوي أكثر ما عصفت به نكبة ١٩٤٨م ذاتها، ومن ثم ازداد تشبثه بجذوره القومية يحاول أن يتكيء عليها علها تمنحه بعض التماسك أمام تلك الهزة العنيفة التي تعرض لها كيانه القومي أو تمنحه على القل بعض العزاء والسلوى " (١).

ويعد نزار قباني واحدا من هؤلاء الشعراء الذين اتجهوا شطر التراث لرفضهم الواقع العربي المتردي تارة، واستنهاض الهمم تارة أخرى، ولقد تنوعت المصادر التراثية التي طرقها نزار قباني، ويعد الموروث الديني والتاريخي والأدبي من أبرز ما عول عليه وامتاح منه نزار.

١-الرمز التراثي الديني:

يعد الموروث الديني من أكثر المصادر التراثية ذيوعا لما يمثله الدين من قداسة في نفوس الناس عامة " والأدب العالمي حافل بالكثير من الأعمال الأدبية العظيمة التي محورها شخصية دينية أو موضوع ديني أو التي تأثرت بشكل أو بآخر بالتراث الديني، ومن الشعراء الأوربيين الكبار الذين استلهموا المصادر الإسلامية في أعمالهم الأدبية الشاعر الإيطالي " دانتي " في ملحمته الشهيرة " الكوميديا الإلهية " حيث استلهم فيها حديث المعراج النبوي وغيره من المصادر الإسلامية والعربية، وكذلك الشاعر

(١) المرجع السابق ص ٢٢٧.

الفرنسي " فيكتور هيجو " الذي قرأ القرآن واستمد منه الكثير من الموضوعات "[١].

ولذلك لم يكن من الغريب أن يكون الموروث الديني مصدرا من المصادر التي عكف عليها نزار قباني في شعره عموما وفي شعره عن فلسطين على وجه الخصوص.

ومن أهم الشخصيات الدينية التي وظفها نزار في شعره عن فلسطين شخصية الأنبياء والرسل، وكانت شخصية النبي محمد (ﷺ) من أكثر هذه الشخصيات توظيفا عند نزار قباني، إذ أخذت دلالات متنوعة ورمزا شاملا للإنسان العربي، كما كانت تأتي أحيانا متداخلة مع شخصيات دينية وتاريخية أخرى.

ويبدو ذلك بوضوح في قصيدة " القدس"[٢] حين جاءت شخصية النبي(ﷺ) متعانقة مع شخصية المسيح (عليه السلام) لإبراز اللوحة التراثية المتعانقة مع الأحداث في فلسطين، فيقول:

سألت عن محمد فيك وعن يسوع

يا قدس يا مدينة تفوح أنبياء

---

(١) نزار قباني شاعرا سيسيا ص ٢٥٦، وراجع في ذلك الأدب المقارن د/ محمد غنيمي هلال ط دار نهضة مصر، اليوم الآخر بين الشرق والغرب د/ محمد رجب البيومي ط مطبعة الأمانة.

(٢) الأعمال السياسية الكاملة ١٥٩/٣.

يا أقصر الدروب بين الأرض والسماء

يا قدس يا منارة الشرائع

فهو هنا يصور قداسة المدينة في نفوس المسلمين والنصارى على السواء، فهي موطن المسيح (عليه السلام) وأمه العذراء، وكذلك هي موطن إسراء النبي(ﷺ) ومعراجه إلى السموات العلى.

ثم ينتقل الشاعر بالطرف المعاصر ليصور ما آلت إليه هذه البقاع المقدسة تحت وطأة ودنس الاحتلال الصهيوني الذي أفقدها هويتها الدينية والقومية، فيقول:

يا طفلة محروقة الأصابع

حزينة حجارة الشوارع

حزينة مآذن الجوامع

يا قدس.. يا مدينة تلتف بالسواد

يا قدس يا مدينة الأحزان

يا دمعة كبيرة تجول في الأجفان

من يوقف العدوان؟

عليك يا لؤلؤة الأديان [1]

(١) الأعمال السياسية الكاملة ١٦٢/٣، ١٦٣.

فنزار يجعل من الطرف التراثي شمسا مضيئة في حين يأتي بالطرف المعاصر ليلا سرمديا، فهذه المقابلة بينهما تبين عظم الفوارق الحادة، والتباين الواضح بين الطرفين التراثي والمعاصر.

فالمدينة التي كانت تفوح أنبياء قديما أصبحت في الصورة المعاصرة مدينة محطمة المآذن، وحين كانت منارة للشرائع في الصورة التراثية أصبحت في الصورة المعاصرة مدينة تلتف بالسواد.

ثم نجد نزار في لوحة أخرى من شعره عن فلسطين يستمر في توظيف شخصية النبي (ﷺ) فهو "وإن لم يصرح بها مباشرة إلا أنه أوجدها بإشعاعاتها المقدسة رمزا للإنسان العربي المغلوب على أمره في الأرض المحتلة، وهو من خلال هذا التوظيف يبرز المفارقة بين مباديء السيادة والشرف والحرية التي أرساها صاحب الرسالة محمد(ﷺ) في نفوس تابعيه الأوائل وبين تابعيه المعاصرين الذين تخلوا عن هذه المباديء تحت أقدام أعدائنا، فقد ودعت هذه المباديء في صمت مهين "[1].

فيقول نزار قباني:

سرقوا منا الزمان العربي

سرقوا فاطمة الزهراء من بيت النبي

وباعوا النسخة الأولى من القرآن

---

(١) نزار قباني شاعرا سياسيا ص ٢٥٨.

كشفوا في أحد ظهر رسول الله [١]

فهذه اللوحة الرائعة تكشف عن الكثير من الرموز والمعادلات بين الطرف التراثي والطرف المعاصر، فبيت النبي يعادل عند نزار حدود الأمة العربية، وفاطمة تعادل في الطرف المعاصر فلسطين المحتلة، والسرقة هنا ترمز إلى ممارسات الكيان الصهيوني، وكذلك البيع والكشف يرمزان إلى تلك الممارسات الرجعية التي يمارسها الاحتلال.

" فإذا كان المسروق هو " فلسطين المحتلة " التي تحتل صدارة القداسة في نفوس الجميع، وقد ألبسها الشاعر ذلك عندما رمز إليها بفاطمة الزهراء التي كانت تتمتع بمكانة قصوى في نفس أبيها محمد (ﷺ)، فهي الوحيدة من ذريته التي عاشت معه حياته كلها، ولم تمت إلا بعده ثم إنها هي التي أنجبت دون سائر ذريته (ﷺ)، وما دامت هي تحتل تلك المكانة في نفس أبيها، فبالأحرى أن تنتقل هذه المكانة السامية لدى جميع تابعيه في شتى البقاع ومختلف العصور، لذلك فإن توظيف هذا الرمز بهذه الطريقة، وجعل السرقة تتم في عقر دار النبي (الأمة العربية) فإن ذلك يوضح ما نحن فيه من خيبة وعار لأن الأمة ــ أي أمة ــ عندما تفرط في مقدساتها فلا وجود لها "[٢].

فنلاحظ أن بيت النبي في الصورة التراثية يعادل حدود الأمة العربية في الصورة المعاصرة، كذلك تشير فاطمة الزهراء بصورتها التراثية إلى

(١) الأعمال السياسية الكاملة ٣/٤٨٧.

(٢) نزار قباني شاعرا سياسيا ص ٢٥٩.

القدس المحتلة في المعادل المعاصر، كما أن أُحُدًا يرمز إلى الانكسارات والهزائم العربية، وكشف ظهر النبي يرمز في الطرف المعاصر إلى التخلي عن واجب الجهاد المقدس.

ويقول نزار أيضا:

مشرشرون نحن في وجدانها

باقون في نبيها الكريم في قرآنها

وفي الوصايا العشر[1]

فهنا يستخدم نزار شخصية الرسول (ﷺ) رمزًا للثورة ضد الظلم والاستعباد، فهو يحمل لواء النضال في سبيل الحق، فهي صحوة معاصرة تمتد جذورها إلى الصحوة التراثية التي قادها النبي (ﷺ) ضد الوثنية والضلال، ومن ثَمَّ تتلاقى مع الصحوة المعاصرة ويجمعها التمسك بالأرض والعقيدة.

وفي رسم صورة المقاوم التي رسمها نزار للمقاومة الفلسطينية نجده يستغل بعض مواقف النبي(ﷺ) البطولية، ويخلعها على منظمة التحرير الفلسطينية، فكما كان النبي(ﷺ) فاتح مكة ومطهرها من رجس الوثنية والضلال في الطرف التراثي، كانت منظمة التحرير في الطرف المعاصر مخلصة للوطن العربي من ظلمات الفرقة والتخاذل، فيقول:

(١) الأعمال السياسية الكاملة ١٦٨/٣.

يا فتح نحن مكة

تنتظر الرسولا[١]

ونلمح هنا مبالغة وغلو في تشبيهه تحرير فلسطين بفتح مكة، ولكن ما يقربها أنَّ مكة هنا رمز للوطن العربي بأكمله المتقاعس عن تحرير الأرض الفلسطينية، ومن هنا كانت الروابط بين الفتح الأول لمكة والفتح المعاصر الذي يريده الشاعر على يد المقاومة المتمثلة في (فتح).

وكما وظف الشاعر شخصية النبي(ﷺ)، وظف كذلك شخصية عيسى (عليه السلام)،" ومعظم ملامح السيد المسيح مستمدة من ملامح الصلب والفداء، والحياة من خلال الموت، فعلى ملمح الصلب أسقط الشعراء كل الآلام التي يتحملها الشاعر المعاصر والإنسان المعاصر سواء كانت تلك الآلام مادية أو معنوية "[٢].

ونزار واحد من الشعراء الذين وظفوا التراث المسيحي، وقد وظف الصلب في شعره عن فلسطين إلا أنه لم يتوسع في مشهد الصلب، ولم يفرد له مساحة كبيرة كما فعل بدر شاكر السياب [٣].

فنزار اكتفى " بالإشارات البسيطة التي تكون ذات مغزى عميــق دون

---

(١) الأعمال السياسية الكاملة ١٤٤/٣.

(٢) استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر د/ علي عشري زايد ص ٨٢ ط دار غريب٢٠٠٦م.

(٣) انظر ديوان أنشودة المطر لبدر شاكر السياب قصيدة " المسيح بعد الصلب " ص ١١٦ ط بيروت ١٩٦٠.

الالتفات حول الرقعة التراثية وحواشيها، فهو يصور الإنسان الفلسطيني المشرد ومحنته القاسية في صورة المسيح (عليه السلام) الذي يعاني من ويلات الصلب "[١].

فيقول:

من ينقذ المسيح ممن قتلوا المسيح

من ينقذ الإنسان[٢]

وقد رمز نزار هنا إلى شعب فلسطين، وهو النموذج المعاصر المقتول بالمسيح (عليه السلام) وهو النموذج التراثي المقتول، وكلاهما مصيره محتوم وهو القتل، فالقاتل واحد لا يتغير، والأرض هي الأرض التي شهدت صلب المسيح إلا أن بموت فلسطين تموت الإنسانية كلها على الأرض.

وقد استطاع نزار من خلال هذه الصورة الرمزية " أن يعمل على توحيد العصور والأماكن والثقافات المختلفة ومزجها بعصرنا وأجوائه وثقافاته، ومن جهة أخرى تؤدي وظيفتها العضوية في القصيدة باعتبارها صورة شعرية، فإذا قرأناها حصلنا على خبرتين مزدوجتين في آنٍ واحد"[٣].

---

(١) نزار قباني شاعرا سياسيا ص ٢٦٤.

(٢) الأعمال السياسية الكاملة ١٦٣/٣.

(٣) الرمز والرمزية في الشعر المعاصر د/ محمد فتوح أحمد ص ٢٩٧ ط دار المعارف ط ثانية ١٩٧٨م.

وفي توظيف آخر لشخصية المسيح (عليه السلام) ودلالتها على فلسطين المحتلة شعبا وأرضا، يتحدث بعد نكسة ١٩٦٧م ويخبرنا عن شخصيتي المسيح والعذراء مبرزا فداحة الخطب وهول الفاجعة، فيقول:

مرَّ عامان والغُزاةُ مقيمون

وتاريخ أمتي أشلاء

مر عامان والمسيح أسير

في يديهم ومريم العذراء[١]

فشخصية المسيح هنا ترمز إلى أرض فلسطين التي وقعت تحت نير الاحتلال الصهيوني عام ١٩٦٧م، وكذلك ترمز إلى " الشعب العربي الفلسطيني الذي يعاني ويلات الاحتلال، فقد مزج الشاعر بين آلام السيد المسيح (عليه السلام) وهو في طريقه للصلب وآلام الأرض والشعب المُحتلَّيْن اللذين مضى عليهما عامان في قبضة الأسر وإن كانت " العذراء " حالة صلب ابنها المسيح (عليه السلام) تمثل ملمح الحزن السلبي الذي لا يقدر على الإنقاذ لعدم توافر القوة لديها، فإنها تعطي هنا دلالات للقوى المخلصة والطاهرة على امتداد الوطن العربي بأكمله، والتي لا تملك من زمام الأمور شيئا فهي ممنوعة من السلطة والقرار معا، لذلك يجنح إلى الحزن السلبي والمخلص في ذات الوقت على ضياع الأمل والأرض معا "[٢].

(١) الأعمال السياسية الكاملة ٤٠٦/٣.

(٢) نزار قباني شاعرا سياسيا ص ٢٦٥.

وتأتي شخصية المسيح (عليه السلام) مرة أخرى عند نزار دالة على فلسطين المحتلة شعبا وأرضا مع الارتباط بقضية النضال المقدس للشعب الفلسطيني حين يقول:

سرقتم المسيح من منزله في الناصره

يصفق العالم للمغامره

وتنصبون مأتما إذا خطفنا طائره[1]

فسرقة المسيح معادل تراثي رامز إلى اغتصاب فلسطين وما عليها من شعب في المدلول المعاصر، وكذلك بيت السيد المسيح (عليه السلام) يرمز إلى الأمة العربية كمعادل معاصر.

وقد لجأ نزار قباني في معرض توظيفه للتراث الديني إلى الاقتباس ومحاكاة التراث كلون من محصلات التجديد في الشعر المعاصر، إذ نلمح " اتكاء الشاعر المعاصر على البنية الإيحائية للقصيدة، ورد العمل الشعري إلى صيغته التصويرية التي ارتبطت به منذ عصور الإنسانية الأولى، وقد أدى إلى اكتشاف الشاعر العربي لتراثه القومي والديني سواء بالإشارة إليه أو الاقتباس منه أو محاكاة نماذجه بطريقة إيحائية أي بحيث يشف النموذج أو الواقعة التراثية عن مشاعر ذاتية أو إنسانية عامة" [2].

---

(١) الأعمال السياسية الكاملة٣/٤٠٦.

(٢) واقع القصيدة العربية د/ محمد فتوح أحمد ص ٥٥ ط دار المعارف ط أولى سنة ١٩٨٤م.

والاقتباس أو محاكاة التراث في شعر نزار قباني عن فلسطين " لا يقصد به تغذية الجو التراثي وإضاءة معالمه فحسب، بل يقصد به ــ في المقام الأول ــ إلى تعميق الإيحاء السائد في تضاعيف السياق الشعري، وقد يأتي الاقتباس كاملا من الموروث لتعميق رؤيا الشاعر ومضاعفة الإحساس بالمرارة "[1]، وهذا ما نجده في قوله:

حرب حزيران انتهت

وضاع كل شيء

الشرف الرفيع

والقلاع والحصون

والمال والبنون [2]

فقوله:"المال والبنون" مقتبس من قوله تعالى:﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الكهف: من الآية٤٦)، فضياع المال والبنون بما فيهما من بهجة الحياة ورونقها ما هو إلا إسقاط عصري يوحي باكتمال مرارة الضياع وفداحة الخطب من هول كارثة ١٩٦٧م.

وفي معرض نبذ الواقع العربي المتخاذل عن نصرة فلسطين يأتي اقتباس نزار من القرآن الكريم اقتباسا لفظيا كاملا في قوله:

---

(١) نزار قباني شاعرا سياسيا ص ٢٧١.

(٢) الأعمال السياسية الكاملة ١١٦/٣.

كنت في المخفر مكسورا كبلور كنيسه

نافخا سورة (ياسين) بوجه القاتلين

لم أكن أملك إلا الصبر

والله يحب الصابرين [1]

فقوله: " والله يحب الصابرين " مقتبس من الآية الكريمة ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران:١٤٦)، فقد أتت في السياق القرآني مؤكدة الصبر والتجلد في مواضع البأس والقتال حتى يأتي النصر، على حين أن نزار في اقتباسها قد عكس دلالتها لوجود المفارقة بين الدلالة التراثية التي اتضحت في الآية الكريمة والإشارات المعاصرة التي " تلقي الضوء على الإسقاطات العصرية التي يوحي بها المُقْتَبَس، فلم تعد هناك معارك مقدسة ولا حروب في سبيل الله، ولم يكن أمام الإنسان العربي المعاصر إلا النضال داخل المخافر والزنازين ــ سواء بمعناها المباشر أو الاستعاريبتحول الوطن كله إلى زنزانة كبيرة أو مخفر لكل بنيه ــ بدلا من مجالدة العدو والحروب في سبيل الله وجها لوجه وسيفا لسيف، غير أن ثمة ملاحظة أوردها الشاعر من إيحاءاته وهي قسوة حكامنا علينا أكثر من قسوة أعدائنا في غبار المعارك أو تعادلها والله يحب الصابرين في كلتا الحالتين "[2].

(١) الأعمال السياسية الكاملة ٣/٢٧٢.

(٢) نزار قباني شاعرا سياسيا ص ٢٧٢.

وتتوالى اقتباسات الشاعر من القرآن الكريم فيأتي قوله:

جلودنا ميتة الإحساس

أرواحنا تشكو من الإفلاس

أيامنا تدور بين الزار

والشطرنج

والنعاسْ

هل " نحن خير أمة أخرجت للناس"(١)

فهو مقتبس من قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران:١١٠)، وجاءت بصيغة الاستفهام الإنكاري الذي يرمز إلى حاضر متردي نتيجة الهزائم المتوالية للعرب، وبلغ العربي مبلغا من التبلد والمهانة، وكأن الهزيمة قد لحقت بشعب آخر وبلاد أخرى.

ومن هنا نجد المفارقة بين مدلول المقتبس في نسيجه التراثي (القرآن الكريم) وبين مدلوله في بنيته الشعرية المعاصرة.

وأيا كان مصدر النموذج التراثي فلابد وأن يخضع في التشكيل الفني لقدر من التحوير والتدوير كي يستقيم مع خصوصية التجربة الإبداعية.

---

(١) الأعمال السياسية الكاملة ٨٦/٣.

٢- الرمز التاريخي:

إن الأحداث والشخصيات التاريخية ليستا مجرد ظواهر كونية تحدث ثم تنتهي بانتهاء حدوثها، فإن لها إلى جانب ها الدور دلالات شمولية وقابلة للتجدد عبر التاريخ في صيغ وأشكال أخرى.

فدلالة البطولة في قائد معين أو دلالة النصر في تحقيق الكسب في معركة معينة " تظل بعد انتهاء الوجود الواقعي لذلك القائد أو تلك المعركة باقية وصالحة لأن تتكرر من خلال مواقف جديدة وأحداث جديدة، وهي في نفس الوقت قابلة لتحمل تأويلات وتفسيرات جديدة، إذ أن التاريخ ليس وصفا لحقبة زمنية من وجهة نظر معاصر لها، إنه إدراك إنسان معاصر أو حديث، فليست هناك إذا صورة جامدة ثابتة لأية فترة من هذا الماضي"(١).

وبالطبع فإن الشاعر يختار من شخصيات التاريخ ما يوافق طبيعة الأفكار والقضايا والهموم التي يريد أن ينقلها إلى المتلقي، وهو " يستخدم شخصية تراثية فإنه لا يستخدم من ملامحها إلا ما يتلاءم وطبيعة التجربة التي يود التعبير عنها من خلال هذه الشخصية، وهو يؤول هذه الملامح التأويل الذي يلائم هذه التجربة قبل أن يسقط عليها الأبعاد المعاصرة التي يريد إسقاطها عليها "(٢).

---

(١) دراسة الأدب العربي د/ مصطفى ناصف ص ٢٠٦ ط الدار القومية للطباعة والنشر، بدون تاريخ.

(٢) استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر د/ علي عشري زايد ص ٢٤٠.

وكذلك يلاحظ أن " من أبرز مظاهر التحوير في استلهام الشاعر للشخصية هو أن يؤول دلالتها التراثية ليمنحها بعدا دلاليا جديدا، أي دلالة معاصرة تتناسب وقضيته المعاصرة التي يعالجها، ويكون هذا التحوير تقنية فنية جديدة إذا كان التأويل مربوطا بسبب بواقع الشخصية، وحقيقتها في الماضي، وقادرا على حمل الدلالة الجديدة التي أوِّل إليها ليعبر عنها من خلال الشخصية "(١).

وهذا هو ما فعله نزار قباني في شعره عن فلسطين حين وظَّف الشخصيات التراثية توظيفا رمزيا يتناسب مع تجربته المعاصرة.

ومن أوائل الشخصيات التي وظفها نزار قباني في شعره عن فلسطين توظيفا رمزيا هم الخلفاء والقواد العظام إذ إنهم " يمثلون الوجه المضيء لتاريخنا سواء بما حققوه من انتصارات وفتوح، أو بما أرسوه من دعائم العدل والديمقراطية، وكذلك من صنعوا مجد الدولة الإسلامية وأرسوا دعائم الحق فيها باتساع رقعتها ونشر ألويتها في أرجاء الأرض"(٢).

فحين ضاق نزار بالزعامات العربية التي يرى أنها السبب في مأساة فلسطين وبقائها مغتصبة مع تردي حال الأمة العربية كلها نراه يستدعي شخصية الإمام علي ــ كرم الله وجهه ــ، وهو لم يسرد لنا صفات

---

(١) استلهام الشخصيات الإسلامية في الشعر العربي الحديث د/ محمد بن عبد الله منور ص ٥٠٢ ط النادي الأدبي بالرياض ط أولى سنة ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

(٢) استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، ص ٢٤٠.

علي (ﷺ) وملامح حياته المعروفة، بل نجده يختار جانبا من حياته يكون بعيدا عن الملامح المستهلكة لدى الشعراء السابقين وهو حزنه(ﷺ) من مواقف أصحابه من أهل العراق الذين خذلوه بفرقتهم واختلاف آرائهم مما كان سببا في ضعفه العسكري وانكساراته أمام معاوية(ﷺ) وأهل الشام، فلقد " رأى نزار في هذا الملمح البعيد من حياة علي ما يمكن أن يحوره ويوظفه للتعبير عن المعنى الذي يود أن يوصله لواقعه الذي يعيشه، ثم إنه وجده كذلك يتجاوب مع حالة الانكسار الذي تعيشه الأمة العربية في العصر الحاضر، فاستلهم هذا الملمح من حياة علي الذي لا يبرز عليا كشجاع منتصر وإنما يبرزه حزينا منكسرا، فاستلهمه للدلالة على حالة الأمة في العصر الحاضر المصابة بالإحباط والانكسارات التي أوقعها فيه من أخذ ثمن غدره بها من أبناء جلدتها " (١).

فنراه يقول:

سرقوا منا الزمان العربي

سرقوا فاطمة الزهراء من بيت النبي

باعوا النسخة الأولى من القرآن

باعوا الحزن في عين علي (٢)

(١) استلهام الشخصيات الإسلامية في الشعر العربي الحديث ص ٥٠٢.

(٢) الأعمال السياسية الكاملة ٤٨٧/٣.

ثم يستلهم نزار شخصيتين من القواد العرب الذين قادوا الجيوش في مشارق الأرض ومغاربها وحققوا الانتصارات المجيدة، وهما خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، ويأتي بهما نزار في قصيدته " منشورات فدائية على جدران إسرائيل " لتصوير مدى استعداد هذه الأمة لأن تنجب قيادات وقوى نضالية قادرة على استرداد فلسطين وصنع الانتصارات على اليهود، فيقول:

لا تسكروا بالنصر

إذا قتلتم خالدا

فسوف يأتي عمرو

وإن سحقتم وردة

فسوف يبقى العطر(١)

"فخالد وعمرو استعارتان للقوى القادرة على النصر في هذه الأمة التي يمثلها في صورتها أولئك الفدائيون الذين يدفعون حياتهم ثمنا للحظة النصر المرجوة، ولا شك أن هذه الاستعارة قد أعطت لهذا اليقين بالنصر لونا من الرسوخ والتحقيق عن طريق إعطائه هذا البعد التاريخي الذي يقوم شاهدا على صدق هذا اليقين، وفي الوقت نفسه صانت عاطفة الشاعر من أن تتحول إلى غنائية صارخة وأضفت عليها شيئا من الموضوعية بإعطائها

(١) المرجع السابق ٣/ ١٦٩.

معادلها الموضوعي، ولا شك أن إيجاز الخطرة التي لا تتجاوز ثلاثة أبيات هو الذي أتاح الفرصة لدلالة الشخصيتين التراثيتين أن تبرز وتؤكد ذاتها"[١].

وهكذا نجح نزار قباني في استخدام الشخصية التاريخية التراثية ووظفها توظيفا رمزيا يتلاءم مع الواقع الذي يعيشه، ووصف حال الأمة العربية وما اتسمت به من ملامح التبلد والخزي والعار.

خامسا: الصورة الشعرية

لقد حظيت الصورة بمنزلة كبيرة لدى الدارسين وأخذت حيزا كبيرا في دراساتهم، فهي تستعمل للدلالة على كل ماله صلة بالتعبير الحسي " وتطلق أحيانا مرادفة للاستعمال الاستعاري للكلمات " [٢].

وتعد الصورة الشعرية " إحدى الأدوات الأساسية التي يستخدمها الشاعر الحديث في بناء قصيدته، وتجسيد الأبعاد المختلفة لرؤيته الشعرية، فبواسطة الصورة يشكل الشاعر أحاسيه وأفكاره وخواطره في شكل فني محسوس، وبواسطتها يشكل رؤيته الخاصة للوجود وللعلاقات الخفية بين عناصره " [٣].

---

(١) استدعاء الشخصية التراثية في الشعر المعاصر ص ٢٨١.

(٢) الصورة الأدبية د/ مصطفى ناصف ص ٣ ط مكتبة مصر سنة ١٩٥٨م.

(٣) عن بناء القصيدة العربية الحديثة د / علي عشري زايد ص ٦٨ ط مكتبة دار العلوم ط٢ سنة ١٩٧٩م.

ولقد تطرقت الكتابات البلاغية القديمة بشكل أو بآخر لمفهوم الصورة وتعددت آراء القدماء حول دلالات مختلفة لتأثير الصورة في النص الشعري، مما يعني " أن الصورة الشعرية ليست اختراعا حديثا فشعرنا العربي القديم حافل بالصور الشعرية البارعة التي استخدمها الشعراء في تجسيد أحاسيسهم ومشاعرهم، والتعبير عن رؤيتهم الخاصة للوجود " [١]، وكان الجاحظ هو أول من أطلق تسمية التصوير على الشعر صراحة حين ذهب إلى أن الشعر " صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير "[٢].

ولقد توسع عبد القاهر الجرجاني في دراسة الصورة حيث أدرك بحسه المرهف أن قيمة الصورة الفنية ومدار بلاغة الكلام يتوقف على براعة الشاعر في صياغة الصورة التي يكون سطحها الحسي ــ وهو وجهها الأول ــ الجسر الموصل إلى وجهها الكامن خلف السطح الحسي، وهو الذي يهدف إليه المبدع [٣]، وبذلك تكون الصورة الشعرية مثل اللوحة الفنية التي يبدعها الرسام بريشته، حيث لا تنقل الموجودات الحسية نقلا حرفيا مطابقا لما في الواقع المرئي، وإنما يضيف إليها المبدع ويعيد تشكيلها بما يتمشى مع أفكاره ومشاعره ومواهبه.

---

(١) المرجع السابق ص ٧٣.

(٢) الحيوان للجاحظ ١٣٢/٣ تحقيق عبد السلام هارون ط الهيئة العامة لقصور الثقافة – القاهرة سنة ٢٠٠٢م.

(٣) انظر دلائل الإعجاز – عبد القاهر الجرجاني تحقيق وشرح محمود محمد شاكر ص ٢٦٦، ٤٢٥ ط الخانجي سنة ١٩٨٤م.

والصورة الحديثة وليدة الخيال الشعري لدى الشعراء المعاصرين، وتتألف عندهم من اتحاد الرؤية الخاصة بالشاعر مع العناصر الفنية، مما يؤدي إلى خلق نسيج فني متحد ومنسجم، " وبذلك تكون القيمة الكبرى للصورة الشعرية في أنها تعمل على تنظيم التجربة الإنسانية الشاملة للكشف عن المعنى الأعمق للحياة والوجود، المتمثل في الخير والجمال من حيث المضمون والبُنَى بطريقة إيحائية مخصبة من حيث الشكل"(١).

ويعد نزار قباني واحدا من الشعراء المعاصرين الذين أكثروا من استخدام الصورة الشعرية، ولم يكن استخدامه لها تقليديا بل أتى في كثير منه استخداما متميزا، إذ ابتدع صوره الشعرية من تلاعبه بالألفاظ، وجعل من عبارته مطية لأسلوبه ولخلق الصورة المميزة غير آبه بالقالب الشعري إن كان عموديا أو جاء على التفعيلة.

ففي صور نزار الشعرية " تتآزر المحسوسات مع المشاعر الوجدانية الخاصة بذات الشاعر، وتسبح في آفاق الخيال لتنتج في النهاية صورة رفيعة البناء، ذلك لأن الخيال يقوم بالدور الأساسي في تشكيل الصورة الشعرية وصياغتها، فهو الذي يلتقط عناصرها من الواقع المادي الحسي وهو الذي يعيد التأليف بين العناصر والمكونات لتصبح صورة للعالم

(١) الصورة الفنية في شعر أبي تمام – عبد القادر الرباعي ص ١٤ – جامعة اليرموك – إربد – الأردن سنة ١٩٨٠.

الشعري الخاص بالشاعر بكل ما فيه من مكونات شعورية ونفسية وفكرية"[١].

ولذلك نراه في شعره عن فلسطين يزاوج بين الصور الجزئية والصور الكلية، فحين يتحدث عن الفداء والتضحية بعد هزيمة ١٩٦٧م يأتي بصورة جزئية حين يجسد الفداء بالزهرة البيضاء ثم يمزجه بالخيال، فيجعله يخرج من بحار الأسى وليل اليتامى، ثم يعود ليجسده في شكل السنابل الخضراء التي تمتزج أيضا مع الخيال فتلوح من شحوب الخريف ومن وجع الأرض، فيقول:

من بحار الأسى وليـــل اليتـــامى تطلع الآن زهرة بيضاء

من شحوب الخريف مـــن وجـــع تلـــــوح الـــــسنابل

فمن خلال هذين البيتين نلمح مجموعة من الصور المتداخلة، " ففي الشكل الخارجي للبيتين يتكون لدينا أرض خصبة وزهرة تطلع وسنابل تلوح، أما في البناء الداخلي في البيتين فنجد الأرض الخصبة مكونة من شقين في البيت الأول أثمرا زهرة، وفي البيت الثاني من شقين أيضا خلفا سنابل، وهذه الأرض الخصبة هي مظاهر اليأس والفجيعة والهزيمة والإحباط، والناتج من هذه الأرض هو الفداء والبطولة "[٣].

---

(١) نزار قباني شاعرا سياسيا ص ٢٩٩.

(٢) الأعمال السياسية الكاملة ٣/٤١٠.

(٣) نزار قباني شاعرا سياسيا ص ٢٩٩.

وهذه الصور المتداخلة تعطي إيحاء بحتمية الفداء الذي يعتبر الطريق الوحيد لتحرير الأرض المغتصبة.

وكان نزار في بعض صوره يلجأ إلى إلى تحويل المعنوي إلى مادي أو تعريفه به حين يلجأ إلى بعض المعاني والمشاعر ويلبسها ثوبا حسيا مثل قوله:

نـــساء فلـــسطين تكحلـــن وفـــي بيـــت لحـــم قاصـــرات

فنرى الأسى وهو معنوي يتحول إلى كحل للنساء في فلسطين المحتلة وهو مادي.

ومن صور تحول المعنوي إلى مادي جعل الربيع يرتعش فينا بل لا يقف جمال الصورة عند هذا الحد، فهي تعتبر من الصور الإيحائية حيث يتحدث عن منظمة التحرير الفلسطينية، فيقول:

يا رعشة الربيع فينا

بعدما يبسنا (٢)

فنزار يرى في هذه الصورة نضال المنظمة بداية لكل إيحاءات الربيع من خصب ونماء، فكأنه يرى في عملها وتضحيتها بداية لتحقيق النصر والتحرير.

---

(١) الأعمال السياسية الكاملة ٣/٣٨٧.

(٢) الأعمال السياسية الكاملة ٣/١٤٣.

(٣) المرجع السابق ٣/ ٨٦.

كما يلاحظ شيوع التشخيص في صور نزار قباني في شعره عن فلسطين، فنراه يشخص المعاني المجردة ومظاهر الطبيعة الجامدة في صور كائنات حية نابضة بالحياة والإحساس، فهذه القدس تغوص في دمائها في قوله:

تغوص القدس في دمها وأنت صريع شهواتكْ[١]

ثم يصور فلسطين وهي تأكل الأحلام وتأكل الخطب الجوفاء من زعماء العرب الذين يتشدقون بسخيف القول دول أن يقدموا عملا يساعد في تحريرها وخلاصها من المحتل الغاصب، فيقول:

ســقُوا فلــسطينَ أحلامــا وأطعمُوها سخيف القول والخُطبا[٢]

وعندما ينادي الشاعر على " فتح " أكبر المنظمات الفلسطينية يأتي بالتشخيص في صورة فريدة بديعة حين يقول:

يا فتح شاب الدمع في عيوننا

ولم يزل خنجر إسرائيلَ في ظهورنا[٣]

فقد شخص الشاعر " الدمع " بإنسان شابت رأسه وشيب الرأس دلالة على طول العمر، فالإنسان لا تشيب رأسه إلا إذا بلغ من الكبر عتيا، فكذلك إذا شابت الدموع فهي دلالة على طول عمرها في العيون، ونلاحظ

(١) المرجع السابق ٣/٤٣١.

(٢) المرجع السابق ٣/ ١٤٥.

في ذلك ملمحا سلبيا من العرب الذين أطالوا في البكاء على أطلال فلسطين ليل نهار، وفي المقابل الإيجابي يبقى العدو الصهيوني وخنجره المسموم في ظهورنا.

وهذه مقابلة رائعة من نزار تتطلب تغيير طريقة البكاء وأن نستبدل النزال بالسيف بدلا من الدموع، كما توحي هذه الصورة بأمل الشاعر المعلق في رقاب فتح إذ يرى فيها الأمل المنشود.

ومن صوره البديعة أيضا قوله مخاطبا أطفال غزة:

يا تلاميذ غزَة..

علمونا..

بعض ما عندكم

فنحن نسينا

علمونا

بأن نكون رجالا

فلدينا الرجال..

صاروا عجينا (١)

(١) ثلاثية أطفال الحجارة لنزار قبادي ص ٢٧ ط منشورات نزار قباني بيروت ط ١ سنة ١٩٨٨م.

فهو في معرض نقده اللاذع لحكام العرب الذين يكثرون من الخطب الجوفاء يقدم صورة لأطفال الحجارة، وهو غاضب ثائر يهجو الرجال العرب، ويترحم على رجولتهم، وقد انبثق أمله على يد أطفال الحجارة وقد طالبهم بأن يعلموا العرب الرجولة، والتشبث بالأرض.

وفي صور أخرى في قصيدته " منشورات على جدران إسرائيل " يقول:

يا آل إسرائيل لا يأخذكم الغرور

عقارب الساعة إن توقفت

لابد أن تدور..

إن اغتصاب الأرض لا يخيفنا

فالريش قد يسقط من أجنحة النسور

والعطش الطويل لا يخيفنا

فالماء يبقى دائما في جوف الصخور(١)

فالشاعر هنا استوحى صوره من أمل كبير وعزيمة قوية في استرجاع الأراضي المحتلة وإن طال الزمن، وهو يصور قوة تحمل العرب مشقات الاحتلال الإسرائيلي، ويخاطب إسرائيل بألا تفرح فالنسور على قوتها قد

(١) الأعمال السياسية الكاملة ٣/ ١٧٦.

يتساقط ريشها لكن يعاود ويظهر الزغب، والجفاف والعطش لا يخيف العرب لأنهم كالصخور التي تنبع منها المياه باستمرار.

وهذا كله يبرز أن نزار قباني ينهل في صناعة صورته الشعرية من ينابيع البلاغة، فيتضافر الأسلوب مع عناصر التركيب لتتكون الصورة الفنية التي لا تنضب عند نزار قباني في شعره عموما وفي شعره عن فلسطين على وجه الخصوص.

الخاتمة

يمكننا القول ــ في هذه الخاتمة ــ بأن نزار قباني يعد شاعرا سياسيا كبيرا لمواكبته أحداث الوطن العربي بصفة عامة وأحداث فلسطين على وجه الخصوص، واستطاع أن يرصد القضية الفلسطينية بكل أبعادها ومحاورها من خلال فنه الشعري الرفيع، ولعل عمله في المناصب الدبلوماسية قد ساعده على التعرف على القضية العربية والفلسطينية عن قرب، وعن مواضع التخاذل العربي والسياسي تجاه القضية الفلسطينية.

وقد حارب نزار في شعره عن فلسطين هذا التخاذل والتفكك العرب آملا في وحدة العرب ودفاعهم عن أم القضايا " فلسطين " وتقدمهم لتحرير أرضهم المغتصبة وعودة فلسطين إليهم.

ولقد كشف هذا البحث عن مجموعة من النتائج التي يجب الإشارة إليها، ومنها:

١- أن اللقب الذي عرف به نزار قباني وهو " شاعر المرأة " قد أخفى جانب السياسة في شعره، وهو جانب مهم يظهر البعد النفسي المتألم والمرارة التي أحس بها كمواطن عربي، والتي ظهرت في شعره عن فلسطين.

٢- أن البحث يظهر تمسك الشاعر بالقيم العربية وبالقضايا التي تهم الأمة العربية والإسلامية وخاصة ــ قضية فلسطين ــ، وبذلك يرد الشاعر بشكل عملي من خلال شعره عن فلسطين التهم التي

وجهت إليه ببعده عن العروبة وبنرجسيته الحالمة التي تصل إلى درجة المرض.

٣- يكشف البحث عن الدور الفعال الذي يحتله الشعر في الحياة من جوانبها الاجتماعية والسياسية، والدور الذي لعبه نزار في كشف اللثام عن بعض الوجوه العربية تجاه قضية فلسطين.

وبعد...

فإن نزار عاش حياته وهو يضع نصب عينيه أن يرى أمته بالصورة التي كان يرسمها لها في خياله أمة واحدة متحدة، حرة أبية عزيزة تنعم بالحرية والعدل والمساواة، ومات دون تحقيق أمله.

والله ندع أن تتحقق أمنية الشاعر، ونسأل أن يعيد الوجه المشرق لأمتنا العربية والإسلامية، اللهم آمين.

الباحث

المصـــادر المراجـــع

١ – القرآن الكريم.

٢ – أسئلة الشعر – منير العكش – ط المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

٣ – استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر د/ علي عشري زايد ط دار غريب٢٠٠٦م.

٤ – استلهام الشخصيات الإسلامية في الشعر العربي الحديث د/ محمد بن عبد الله منور ط النادي الأدبي بالرياض ط أولى سنة ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

٥ – الأصوات اللغوية د/ إبراهيم أنيس ط نهضة مصر القاهرة د.ط – د. ت.

٦ – الأعمال السياسية الكاملة – نزار قباني– المجلد الثالث ط منشورات نزار قباني بيروت – لبنان ط١ ١٩٨١م.

٧ – التكرار في الشعر الجاهلي د/ موسى ربابعة، بحث مقدم لمؤتمر النقد الأدبي الثاني سنة ١٩٨٨م، جامعة اليرموك، إربد.

٨ – تهذيب المقدمة اللغوية د/ عبد الله العلايلي ط دار النعمان – لبنان ط ١ سنة ١٩٦٨.

٩ – ثلاثية أطفال الحجارة – نزار قباني ط منشورات نزار قباني بيروت ط ١ سنة ١٩٨٨م.

١٠ – الحيوان للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون ط الهيئة العامة لقصور الثقافة – القاهرة سنة ٢٠٠٢م.

١١ – الخصائص الفنية في شعر محمد هاشم رشيد د/ عبد الرحمن محمد الوصيفي بدون طبعة.

١٢ – دراسة الأدب العربي د/ مصطفى ناصف ط الدار القومية للطباعة والنشر، بدون تاريخ.

١٣ – دلائل الإعجاز – عبد القاهر الجرجاني تحقيق وشرح محمود محمد شاكر ط الخانجي سنة ١٩٨٤م.

١٤ – ديوان أبي سرور ط وزارة التراث والثقافة عمان.

١٥ – ديوان أحمد محرم جمعه وحققه وشرحه محمود أحمد محرم ط مكتبة الفلاح الكويت سنة ١٩٨٤م.

١٦ – ديوان أنشودة المطر لبدر شاكر السياب قصيدة " المسيح بعد الصلب" ط بيروت ١٩٦٠.

١٧ – ديوان الزمان الجديد لحسن الأمرائي ط دار الأمان ط ١ ١٩٨٨م.

١٨ – ديوان عمر أبو ريشة ص ٨ ط دار العودة بيروت.

١٩ – ديوان " عودة الغرباء " ، هارون هاشم رشيد ط منشورات المكتب التجاري ببيروت سنة ١٩٥٦م.

٢٠ – ديوان " قصائد فلسطينية "، هارون هاشم رشيد ط دار مجدلاوي – عمان سنة ٢٠٠٣.

٢١ – ديوان مفكرة عاشق هارون هاشم رشيد ط المطابع الموحدة سنة ١٩٨٠.

٢٢ – الرمز والرمزية في الشعر المعاصر د/ محمد فتوح أحمد ط دار المعارف ط ثانية ١٩٧٨م.

٢٣ – الشعر العربي المعاصر د / عز الدين إسماعيل ط دار الفكر العربي ط ٣ سنة ١٩٨٧ م.

٢٤ – شعراء الدعوة الإسلامية، أحمد الجدع، حسني أدهم جرار ط مؤسسة الرسالة سنة ١٩٧٨م.

٢٥ – الصورة الأدبية د/ مصطفى ناصف ط مكتبة مصر سنة ١٩٥٨م.

٢٦ – الصورة الفنية في شعر أبي تمام – عبد القادر الرباعي – جامعة اليرموك – إربد – الأردن سنة ١٩٨٠.

٢٧ – العامل الديني في الشعر المصري الحديث د/ سعد الدين الجيزاوي ط المجلس الأعلى للفنون والآداب سنة ١٩٦٤م.

٢٨ – عن بناء القصيدة العربية الحديثة د / علي عشري زايد ط مكتبة دار العلوم ط٢ سنة ١٩٧٩م.

٢٩ – قصيدة بلقيس – نزار قباني– منشورات نزار قباني – بيروت ط٦ ١٩٩٨م.

٣٠ – قضايا الشعر المعاصر – نازك الملائكة ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٣١ – مستويات البناء الشعري عند محمد إبراهيم أبو سنة (دراسة في بلاغة النص) د/ شكري الطوانسي ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨م.

٣٢ – نزار قباني والقضية الفلسطينية د / ميرفت دهان ط دار بيسان – بيروت سنة ٢٠٠١م.

٣٣ – نزار قباني شاعرا سياسيا د/ عبد الرحمن محمد الوصيفي ط مكتبة الآداب ط١ سنة ١٩٩٥م.

٣٤ – واقع القصيدة العربية د/ محمد فتوح أحمد ط دار المعارف ط أولى سنة ١٩٨٤م.

الرسائل العلمية

١– البنية الإيقاعية في شعر فدوى طوقان رسالة ماجستير مخطوطة بكلية الآداب جامعة ورقلة – الجزائر سنة ٢٠٠٤م.

الدوريات

١ – مجلة الآداب العدد العاشر سنة ١٩٧١م.

٢ – مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية – مكة المكرمة العدد السابع عام ٢٠٠٢م.

٣ – مجلة الحج والعمرة السعودية العدد ٧ عام ١٤٢٨هـ.

٤ – مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة العدد العشرون الجزء الثاني.

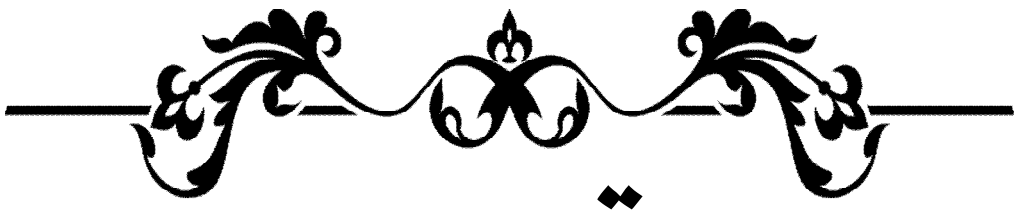

قسم

اللغات والترجمة